


# صلاة الإستسقاء

## وبالأسحار هم يستغفرون





د. رشيد الجراح

# *Certificate of Registration*
# *CopyrightFrance*

*Copyright Registration Number:* 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

**The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.**

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

**Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :**

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.

Warning : under no circumstances would the website or the Certification Authority guarantee or legitimize any use of registered documents .The authenticity given by this registration is only on the date and time of the registration as well as the existence of the registered documents. This registration would never be a substitute to a legal registration as decided by law, especially regarding patents, brands, RCS, ISBN, rules for competition games, etc.This certificate of registration would never be a substitute to an official affidavit.
Beware ! all use without the author's authorization will be considered an offence and will lead to proceedings. Every modification or copy of this document will lead to proceedings.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

# كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.


**فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:**

- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

**للإتصال بالفريق :** roohblog2025@gmail.com

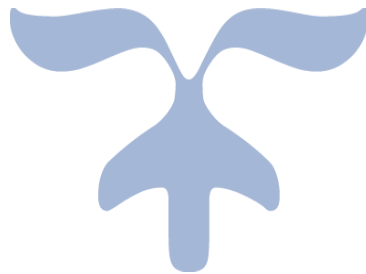
# الفهرس:

# الفهرس



# صلاة الإستسقاء

# الجزء الأول



# صلاة الإستسقاء – الجزء الأول

إنحبس المطر، خرج الناس يوم الخميس عصراً لأداء صلاة الاستسقاء بناء على دعوة وزارة الأوقاف والمقدسات الإسلامية الأردنية من أجل أن ينزل المطر بعد طول انحباس، احتشد المئات بل الألوف واصطفوا للصلاة في ساحة عامة، فخلع بعضهم رداءه ولبسه على المقلوب، حضر الصلاة بعض النسوة والغلمان، وكان في المقابل البعيد بعض الدواب شاردة في البرية تأكل مما تبقى من أكياس النفايات من الأماكن التي لم يكنسها عمال التنظيف بشكل جيد، أمّ الناس في الصلاة شيخ جليل تغطي لحيته معظم الجزء العلوي من صدره، يلبس الدشداش المرتفع عن الأرض بعض الشيء، سيطر السكون بعض الشيء على المكان، حينها كنت تحس بدفء الإيمان المنبعث من بعض الصدور، تمت الصلاة ورفع الإمام كفيه إلى السماء (والمصلين من وراءه) داعياً بكل ما يحفظ من المأثور ومما استطاع أن تسعفه به قدرته اللغوية في تلك اللحظة من عبارات السجع الرنانة، أجهش البعض في البكاء، الخ. انقضت الصلاة، لم ينزل المطر.

عاد الناس إلى بيوتهم غير فاقدين الأمل وانتظروا حتى المساء ولم ينزل المطر، خلدنا إلى الفراش ولم نفقد الأمل بأن المطر سينزل في الصباح، ولكن لم ينزل المطر، مرت سحابة في السماء في اليوم التالي ظننت أنها بشرى الخير، ولكن السيد فؤاد كرشة (مقدم النشرة الجوية في التلفزيون الأردني) يجهز على ما تبقى من أمل في مساء اليوم التالي بالخبر التالي: "مرتفع جوي يسطر على منطقة بلاد الشام ومعظم أجزاء شبه الجزيرة العربية"!!!

كان هذا هو تقريبا السيناريو نفسه الذي حصل في السنوات الماضية، كل عام نخرج للاستسقاء ولا أذكر أن المطر نزل من السماء بعد تلك الصلاة ولو مرة واحدة (هذا بالنسبة للصلاة التي شاركت أنا بها، أما ما يتناقله الناس عن صلواتهم التي ربما نزل فيها مطر كثير كما يقول بعضهم، فأرجو أن لا تكون صلاتهم تلك قد تم توقيتها بناء على النشرات الجوية التي أكدت وجود منخفض قادم إلى المنطقة)، كان السؤال الذي كنت أردده منذ الصغر هو: ما فائدة تلك الصلاة؟ ألم نجربها مرات ومرات؟ لم نكرر الخطأ نفسه في كل عام؟ لم نضيعّ الوقت والجهد كل عام ما دام أن النتيجة في معظم الأحيان (لا بل في كل الأحيان) سلبية؟

المفاجأة الكبرى أنني استطعت الحصول على إجابة لمثل هذا التساؤل عندما شاهدت برنامجاً دينياً على إحدى قنوات التلفزة الفضائية العتيدة، لقد أنقذني ذلك الشيخ الجليل من الجهل الذي عايشني سنين طويلة، ولكن قبل أن أقدم لكم جواب الشيخ الجليل ذاك لا بد أن أشير أن هذا الجواب نفسه قد سمعته من على منابر المساجد وفي خطب الجمع أكثر من مرة، ولكن أولئك الخطباء لم يكونوا بمهارة شيخ الفضائيات في قوة الحجة والإقناع، فلقد نخر ذاك الشيخ الجواب حتى لم أستطع أن أفلت منه، فوجد طريقه إلى دماغي بكل يسر وسهوله.

**المهم**: كان جواب الشيخ يدور في فلك موضوع الدعاء برمته (وليس فقط صلاة الاستسقاء)، وليعذرني القارئ الكريم على ضعف قدرتي البلاغية في توصيل الفكرة كما جلاّها شيخنا الجليل، ولكني أعتمد على قدرة القارئ الذهنية ليساعدني في تلقي المعلومة، كان جواب الشيخ يتمثل بما يأتي: عزيزي

المسلم إذا لم يستجيب الله دعائك فلا تيأس وأعلم أن ذاك لصالحك، لأنه في حالة الدعاء (أي دعاء) هناك ثلاث سيناريوهات محتملة:

1. أن يستجيب الله طلبك في الحال، أو
2. أن يدخر الله لك ذلك الدعاء وأجره إلى يوم الحساب أو
3. أن يكفّ الله عنك من الشر بمثله،

وأظن أن الشيخ الجليل (أقول أظن فأنا لست متيقنا من ذلك) قد رفع مثل هذا القول إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أي ويكأن ذلك حديثاً.

الحمد الله، إذاً لم يذهب جهدنا في كل صلاة استسقاء صليناها ولم يستجب طلبنا في الحال (أي كل الصلوات التي شاركت بها أنا على الأقل) هباءً منثورا، فثوابها موجود في صحائف أعمالنا إلى يوم القيامة، أو على أقل تقدير فالله سبحانه قد كفاني شراً أعظم من ذلك كالزلازل أو البراكين أو عدم انهيار البورصة أو عدم إنزال الصقيع بمحصول البندورة في غور الأردن، فها هي كيلو البندورة في زمن حكومة السيد سمير الرفاعي لم تتجاوز الدينار الأردني الواحد، الخ.

لم إذاً لا نصلي كل يوم استسقاء، فنبقي لنا رصيداً كبيراً في صحائف أعمالنا أو أننا نكفي أنفسنا شراً كبيراً.

ولكن يبقى - يا سادة- سؤال بسيط واحد يجول في خاطري وهو: في العام الماضي صلينا استسقاء ولم ينزل المطر، ولكن المفارقة العجيبة أن الله لم يكفي الشعب الأردني ولو مصيبة واحدة: كمصيبة تشكيل حكومة برئاسة السيد سمير الرفاعي، وتكرر المشهد في العام الحالي وتم التجديد للسيد الرفاعي، فيكون سؤالي على النحو التالي: ما هي المصيبة التي كفانا الله إياها نتيجة صلاة الاستخارة التي أديناها –على الأقل- في العام الماضي والعام الحالي؟

لا يجب أن نستسلم – سيرد عليّ شيخ الفضائيات الجليل-، فلا زال هناك خيار ثالث: لقد تم ادخار الأجر لنا في صحائف أعمالنا حتى يوم القيامة، فمادام المطر لم ينزل وما دام أن الله لم يكفينا شر حكومة السيد الرفاعي فلا بد أن الأجر لازال مدخراً في صحائف أعمالنا حتى يوم القيامة، أليس كذلك؟ هذا هو فقه الدعاء في الفكر الإسلامي، أليس كذلك؟

أما بعد،

لا يا شيخي الفاضل، أما بالنسبة لي فأنا لا أريد ذاك الأجر الذي تتحدث عنه، أقسم بالله أني لا أريده، إذا كان ذلك مسجل لي في صحيفة أعمالي فليشطب من صحيفتي، فأنا لا أقبل بمبدأ الدين، وأريد الجواب على طلبي في الحال، وبالمناسبة لا أريد كذلك أن يكفيني الله من الشر شيئاً نتيجة لذاك الدعاء. إما أن يستجيب الله دعائي وإلا فلا أريد منه أن يسجل لي على الدفتر (حسب لغة تجار زمان خصوصاً أصحاب الذمم الحية التي كنا نعرفها) ولا أريد منه أن يكفيني شراً بسبب تلك الصلاة. ولكن لماذا؟

لقد درج فقه الدعاء في الفكر الإسلامي على تفسير الغيبيات بالغيبيات، وأظن أنه لم يكن لدى علمائنا الأجلاء "حيلة" (نعم أقول حيلة) أفضل من مبدأ التسكيت أو التعمية (بلغة أكاديمية): إنها تفسير اللامفهوم بـ لامفهوم مثله، تفسير أمر غيبي بأمر غيبي آخر، فعندما لم نعلم لِمَ لَمْ ينزل المطر بعد صلاة الاستسقاء التي أديناها كان لا بد من البحث عن مخرج، فكان ذلك على نحو الرضا بواقع الحال لأن الأمر نقل من أمر غيبي (سبب عدم نزول المطر) إلى أمر غيبي آخر (كتابة ذلك في صحائف أعمالنا أو رد شر يواز ما طلبنا)، ولكن بالنسبة لي أنا تبقى المشكلة قائمة: كيف سأعرف أن الله فعلاً قد كفاني مكروها بسبب دعائي أو أنه قد سجل ذلك لي في صحيفة أعمالي؟

**الجواب عند سادتنا العلماء**: عليك أن تؤمن وكفى، لهذا السبب (كما قلت سابقاً) دخلت الفكرة في دماغي بكل يسر وسهولة، وبهذه الطريقة أدخل أهل الدين مئات بل الآلاف الغيبيات في أدمغة العامة مثلي دون عناء يذكر (خاصة الذين لا يحبذون التفكير بأنفسهم ويمنحون غيرهم الرخصة ليفكروا نيابة عنهم ويكونوا على أتم استعداد لقبول ما تمخضت عنه عقول هؤلاء من العبقرية الخالدة التي لا بد أن تسلم معها بكل جوارحك)

**رأينا**: لا يا سادة، أنا لم أعد أقبل مثل هذا المنطق، عليكم أن تبينوا لي كيف يحدث ذلك. لماذا لم يستجب الله دعائنا في الحال؟ أو كيف كفّ عنا بلاء بسبب دعائنا له بنزول المطر؟ أو لم ادخر ذاك الأجر لنا حتى يوم القيامة؟ لم لا يدفع لنا مباشرة؟ أم ترى خزائنه قد نفذت فيؤجلنا حتى تمتلئ من جديد؟

ما الذي تقول يا رجل؟ استغفر ربك، لقد قلت قولاً عظيماً سيهوي بك في جهنم سبعين خريفا.

---

دعاء: استغفر الله استغفر الله استغفر الله

ربي إني ظلمت نفسي فأغفر لي

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين

---

ولكن ربي إني أسأل فقط: لماذا لم تجب دعائي في الحال؟ ما يضرك لو استجبت دعائي فنزل المطر وانتهت القصة؟ فها هي أوروبا تنعم بالثلوج وهم لم يصلوا الاستسقاء ولم يرجوك، وها هي أمريكيا تنعم بالثلوج وهم غارقون في اللهو والمجون، وها هي الصين وروسيا تحت وطأة الثلوج منذ عشرات الأيام وهم لا يكترثون أصلاً لوجودك، وها هي الهند تعمّها الفيضانات وهم يصلون لعبيدك، وها هي أجزاء كثيرة من إفريقيا (باستثناء شمالها ووسطها المسلم) تنعم بالمطر الغزير وهم لا يجتهدوا بطلبها ولا بطلب غيرها، آه ربما لأنهم لا يلبسون الثياب أصلاً أما نحن فنقلبها في صلاتنا فقط!!! من يدري!!!

**السؤال**: ما الذي يجري؟ لماذا لا يستجاب طلبنا بنزول المطر في الحال؟ فالماء كثير وكل شعوب الأرض يأتيها دون طلب ولا صلاة استسقاء، أما نحن فنطلبها ونصلي الاستسقاء ولا نحصل عليها، متى سنحصل عليها سواء بالطلب أو عدمه؟

أليس هذا استفسار مشروع لكل من وقف يوماً وصلى الاستسقاء؟ بالنسبة لي هذا لغز لا بد من مطاردته، وعلينا البحث فيه علنا نصل – ربما بعد 1400 سنة أخرى- إلى جواب قد يرضي المتشككين من أمثالي.

## الفكر السائد

إنّ أول ما يمكن البحث فيه هو منطق علماء المسلمين بخصوص الموضوع، فجميع علماء المسلمين (دون استثناء) يؤكدون أن الدعاء جزء من الدين، لا بل فلقد قالوا أن الدعاء هو مخ العبادة، أليس كذلك؟ ونحن كمسلمين مطالبين دوماً بالدعاء والتوجه إلى الله لنطلب منه ما نريد صغيراً كان أو كبيراً، فإن ذلك لا يعجز الله، وفي الفكر نفسه نجد الإيمان المطلق بأن البشرية لو وقفت كلها في صعيد واحد وطلب كل مسألته وحصل عليها من ربه لما نقص ذلك من ملك الله في شيء إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر.

وإذا كان الأمر على تلك الشاكلة، فلم لا يلبي الله طلبنا في الحال؟ لقد جرّب الناس الدعاء فرفعوا أيديهم إلى السماء، وطلبوا من الله فلم يحصلوا على ما طلبوا، فما الحل؟ كان الحلّ لدى السادة العلماء هو (كما أسلفنا سابقاً) أسلوب التعمية، أي تفسير الغيبيات بغيبيات أكبر، والمطلوب من الناس الإيمان بها على تلك الشاكلة دون سؤال أو استفسار.

أما أنا فلا، فلا، فلا. لا استطيع إلاّ أن أسأل. ما الذي يحصل؟ أثبتوا لي أن ذلك مسجل في صحيفة أعمالي، أو أثبتوا لي أن بلاءً بمثله قد أزاحه الله عني، ولا يمكن أن أرضى بأقل من ذلك.

**لماذا؟**

دعنا أولا نحاول أن نثبت لكم يا سادة – علماء وعامة- أنكم مخطئون وأنه من الاستحالة أن يكون الله قد سجل دعاءنا أجراً في صحيفة أعمالنا أو أن يكون الله قد دفع بلاءً عنا بمثل طلبنا.

**أولاً**: هل مبدأ المقايضة موجود عند الله؟

لا بد أن ندرك منذ البداية أننا نحتكم إلى الله بقوانين الله نفسه، فنحن لا نضع القوانين التي نريد ومن ثم نطبقها ونفترض أن الإله يقبل بها، أليس كذلك؟ ولكن مما لا شك فيه أن الإله –لا محالة- يقبل بالقوانين والسنن التي وضعها على نفسه، أليس كذلك؟

لقد قلت في البداية أني لا أقبل أن يدفع الله عني البلاء بسبب دعائي له طالباً حاجة، فأنا إذا طلبت منه إنزال المطر فلا أرضى أن يدفع عني كارثة الزلزال، وإذا طلبت منه الغنى فلا أقبل أن يدفع عني كارثة

المرض، وهكذا (حر أني ما بديش، بدي أداقر)، ولا أرضى أن يدخر الله لي ذلك أجراً حتى يوم القيامة، فأنا طلبت منه مطراً أريد مطراً، وطلبت مالاً فأريد مالاً، وهكذا.

منطق غريب، أليس كذلك؟ إن كان كذلك، إي إذا كان هذا منطق غريب وغير مقبول لديك، فدعنا نقرأ وإياك – يرحمك الله- الآية التالية من كتاب الله:

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾ [آل عمران: 91]

ماذا تفهم – عزيزي القارئ- من هذه الآية الكريمة؟ هل يقبل الله ملء الأرض ذهباً لافتدي به نفسي يوم القيامة؟ الجواب النفي قطعاً. هل يقبل الله مبدأ الفداء (المقايضة، الاستبدال، الخ)؟ الجواب: لا يقبل بكل تأكيد، إذا كان هذا هو مبدأ الإله نفسه، فأنا ألتزم بهذا القانون الإلهي ولن أقبل أن يقايضني ربي شيئاً طلبته بشيء آخر لم أطلبه حتى لو كان ملء الأرض ذهباً، فأنا طلبت منه مالا فلا أريد أن يبدلني بها صحة، وطلبت منه صحة فلا أقبل أن يقايضني بها مالا، وهكذا. وتخيل معي السيناريو التالي: في يوم القيامة سأسأل ربي لم لم يعطيني مئة دينار كنت قد طلبتها منه في يوم ما على هذه الأرض، فسيرد عليّ بأني قد أنعمت عليك بالصحة بدلاً من ذلك، هل تعلم ما سيكون ردي حينئذ: لا، لا أريد، كنت أريد ذلك المبلغ ولو أعطيتني الآن بدلاً منه ملء الأرض ذهباً فلن أقبل.

**الخلاصة**: فكما لا يرضى الإله بمبدأ الفدا في يوم القيامة فأنا كذلك لا أرضى بمبدأ الفداء في الدنيا، فتلك هي الدار الآخرة وهذه هي الدنيا، وشتان بين هذه وتلك.

ثم يا سادة، دعونا نستجلي الأمر من كتاب الله أولاً، ونأخذ العبرة والعظة الصحيحة (وليس التخاريف وفلسفة الكلام) من القول الحق – كلام الله نفسه، فها هم أنبياء الله ورسله جميعاً يتوجهوا بالدعاء لربهم، فماذا كانت النتيجة؟ هل بادلهم الله القمح بالشعير والتمر بالحنطة؟ فلنستعرض تلك الأمثلة الواحدة تلو الأخرى، محاولين فهم ما يجري، ولنبدأ بنوح عليه السلام

**نوح يدعو:**

- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ٧٦﴾ [الأنبياء: 76]
- ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ٧٥ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ٧٦﴾ [الصافات: 75-76]

فماذا كانت النتيجة عندما دعا نوح على قومه

- ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]

ألم يستجب الله دعاء نوح فكانت العاقبة على نحو:

- ﴿... فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ١٤﴾ [العنكبوت: 14]

- ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ۝٧٦ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٧٧﴾ [الأنبياء: 76-77]

**ونحن هنا نسأل**: هل استجاب الله طلب نوح بتأخير الأجر له إلى يوم القيامة؟ هل استجاب الله طلب نوح بأن دفع عنه بلاء يواز طلبه ذاك؟

للإجابة عن استفسار بخصوص عدم نجاة ابن نوح نطلب من القارئ مراجعة مقالاتنا تحت عنوان صلات قرابة، وكم لبث نوح في قومه وسفينة نوح ونظرية تكون القارات

---

**النتيجة: لقد دعا نوح ربه بنجاته وأهله أجمعين وهلاك البقية الكافرة بأكملها فكانت استجابة الله على نحو ما طلب نبيه.**

---

**يونس يدعو:**

- ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

فماذا كانت النتيجة؟

- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء: 88]

**ونحن نسأل هنا**: هل كانت الاستجابة بالتأجيل أو بالفداء (المقايضة)؟

**إبراهيم يطلب:**

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ... ۝٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

فهل كانت الاستجابة بأن دفع الله عنه البلاء أو أجل له الأجر؟ كلا، لقد جاء الرد الإلهي المباشر:

- ﴿... قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٦٠﴾ [البقرة: 260]

أما بخصوص والد إبراهيم فإننا ندعو القارئ الكريم لمراجعة مقالتنا تحت عنوان "صلات قرابة"

**أيوب يدعو:**

- ﴿۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [الأنبياء: 83]
- ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص: 41]

فهل كانت الاستجابة بأن أعطاه الله الولد وكفى، أو أنّ أنقذه الله من مصيبة أكبر كانت ستنزل به؟ كلا، لقد جاء الكرم الإلهي بأن أعطاه مسألته وزاد عليها:

- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: 84]
- ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: 42-44]

**يوسف يطلب:**

وها هو يوسف يطلب من ربه أن يصرف عنه مكر نساء مصر، فيصرف الله عنه مكرهن:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: 33-34]

فصرف الله عنه مكره ودخل السجن بناء على طلب من الله، أليس كذلك؟ ونحن نعتقد جازمين أن يوسف كان يستطيع تجنب السجن لو أنه دعا الله أن يصرف عنه كيدهن وكفى

**يعقوب يطلب:**

وها هو والده يعقوب يتردد بالدعاء فتتأخر الاستجابة بعض الشيء:

- ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: 83]

**سليمان يطلب:**

وها هو سليمان يطلب:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص: 35]

فكيف كانت الاستجابة؟

- ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۝٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ۝٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ۝٤٠﴾ [ص: 36-40]
- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ۝٨٢﴾ [الأنبياء: 81-82]
- ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢﴾ [سبأ: 12]

**زكريا يطلب:**

وها هو زكريا يدعوا ربه ليهب له غلاماً:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: 38]
- ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 2-6]
- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

فلننظر كيف كانت الاستجابة:

- ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: 39]
- ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: 7]
- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

هل استجاب الله إذاً طلب زكريا بأن صرف عنه المرض أو أنه ادخر له طلبه ذاك حتى يوم القيامة ليكافئه عليه حينئذ؟!

**عيسى يطلب:**

وها هو عيسى بن مريم يطلب من ربه أن ينزّل عليه وعلى قومه مائدة من السماء:

- ﴿قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤﴾ [المائدة: 114]

فكيف كانت النتيجة؟ ألم ينزل الله عليهم المائدة كما طلب عيسى عليه السلام؟

- ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥﴾ [المائدة: 115]

**موسى يطلب:**

وأي طلب أعظم من طلب نبي الله موسى بأن يرى الله جهرة؟

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

ألم يستجب الله له طلبه بأن تجلى للجبل؟ ولو كان موسى يحتمل الرؤيا لتمكن من رؤية ربه، أليس كذلك؟

والملفت للانتباه أن علماءنا صوروا لنا الأمر على النحو التالي: إن هذه دعوة نبي، ولكل نبي دعوة مستجابة، أليس كذلك؟

**رأينا**: إن كان كلامهم هذا صحيح، فماذا نفعل إذاً بسيرة موسى عليه السلام، ولنتتبع سيرة موسى عليه السلام مركزين على ما كان يطلب موسى من ربه في كل موقف يتعرض له.

ألم يقتل موسى الرجل الذي كان من عدوه فيعترف بخطأه ويعود فوراً إلى ربه طالباً المغفرة ، فيغفر الله له ذنبه ذاك في الحال؟

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 15-16]

وها هو يطلب من ربه النجاة من القوم الظالمين:

- ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١﴾ [القصص: 21]

وها هو يطلب من ربه أن يهديه سواء السبيل فيجد نفسه واقف عند ماء مدين:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 22-23]

وها هو يتولى إلى الظل ويطلب من ربه الرزق، فكان الرد الإلهي بأن جاءته إحداهما تدعوه إلى أبيها ليجزيه أجر ما سقى لهما:

- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: 24-25]

وهذا رب موسى يطلب منه الذهاب إلى فرعون فما يكون من موسى إلا أن يطلب هو بدوره وزيراً من أهله ويخص أخاه هارون على وجه التحديد، فيأتي الرد الإلهي بالإيجاب:

- ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: 29-36]

وها هم القوم يطلبوا من موسى أن يسأل ربه ليكشف عنهم الرجز، فيتم له ذلك:

- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [الأعراف: 134-135]

وها هو يستسقي لقومه، فلا يرد الله له طلباً:

- ﴿۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [البقرة: 60]
- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: 160]

ولكن الملفت للانتباه أن قومه طلبوا منه استبدال الذي أدنى (البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل) بالذي هو خير (المن والسلوى) فلم يتوجه موسى لربه بذاك الطلب وكان رد على نحو "أهبطوا مصراً":

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [البقرة: 61]

وها هو يقف أمام اليم وفرعون وجنوده على وشك اللحاق بهم فيظن القوم أنه مدركون ولكن موسى الواثق بربه يرد بالقول بأن الله سيهديه إلى طريق النجاة:

- ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: 61-62]
- ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: 63]

وبعد هذا السرد نعود بالسؤال البسيط وهو: كم مرة طلب موسى من ربه؟ وكم مرة تمت الاستجابة الربانية على طلب موسى؟ وكيف جاء الرد الإلهي على طلبات نبيه المتكررة؟ فهل نجد - ولو مرة واحدة – أن موسى (أو أي نبي آخر) يطلب شيئاً من ربه فتكون الإجابة بشيء غير الطلب نفسه؟ هل طلب أحدهم ولداً فاستجاب الله له بالشفاء؟ أو هل طلب أحدهم من الله الشفاء فأعطاه الولد؟ وهل طلب أحدهم الغنى فنجاه من الهلاك أو العكس؟

ولكن انتبه يا رجل هؤلاء أنبياء الله، هل تطلب أنت أن تستجب دعوتك كما يستجيب الله دعوة أنبياءه؟ هل أنت في كامل قواك العقلية؟ ألا تستطيع أن ترى أنك تتحدث عن أنبياء الله؟

أعتذر يا سادة، لقد فاتتني هذه المسألة، كيف لم أدرك أن طلب الأنبياء والاستجابة لطلبهم تختلف عن طلبنا نحن؟ ما أكثر ما ينسى الإنسان!

ولكن، لحظة من فضلك! هل فعلاً طلب الأنبياء يختلف عن طلب الناس العاديين؟ هل دعوتنا تختلف عن دعوة الأنبياء؟ وإذا كان كذلك، فلم إذاً يطلب منا الله أن ندعوه؟

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

هل هذه الدعوة موجهة للأنبياء فقط؟ فهل مفردة " عِبَادِى " في الآية الكريمة تخص الأنبياء فقط؟ وهل تخص عبارة " دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ " في الآية نفسها الأنبياء لا غير؟

كلا، إنها موجه لعباد الله كافة، إذاً، لماذا لا يستجيب الله طلبنا بنفس الصورة التي استجاب الله طلب الأنبياء؟

لم يكن هناك رد لدى السادة العلماء سوى التذرع بمسألة الإيمان، فهم يعتقدون أن هؤلاء رسل الله وأنبياءه، ولا شك أن الله سيستجيب طلبهم، ولكنّ السؤال الذي أطرحه هنا هو: لماذا لا يستجيب الله طلبي وطلبك على الفور؟ ربما لأننا لا نملك إيماناً صادقاً كما هو الحال عند هؤلاء الرسل والأنبياء، هل هذا هو المنطق الذي تحاولون – أيها العلماء الأجلاء تسويقه؟هل هي مسألة إيمان؟

إن كان هذا منطقكم فأنتم تدينون لنا بالإجابة على تساؤل أكبر، صحيح أنني وإياك لسنا بمنزلة الرسل، ولكننا في الوقت ذلته أفضل منزلة من إبليس نفسه، أليس كذلك؟ وبكلمات أخرى، من أفضل أنا أم إبليس؟ هاه؟! أقول من الأفضل أنا أم إبليس؟ صحيح أنا أمارس التحريف والتظليل مثل إبليس ولكن مما لا شك فيه أنه بدأ هذه الرحلة قبلي بالآلاف السنين وهو الأقدر على ذلك، فأنا لا زلت أقل خطراً بعض الشيء من إبليس، أليس كذلك؟ ولا تنسى أني أقول "أشهد أن لا إله إلا الله" وأقر بأن "محمداً رسول الله"، واستغفر الله على ذنبي بين الفينة والأخرى، ولكن إبليس لم يقبل أن يستغفر ربه على الذنب الذي ارتكبه، أليس كذلك؟

إذاً، أليس من المفترض أن أكون أنا أفضل من إبليس؟

⇐ لنوافقك الرأي، يرد سادتنا العلماء، ولكن ما الذي تنوي أن تقوله؟
⇐ إن مراد القول هو إذا كنت أنا أفضل من إبليس، فلم استجاب الله لإبليس على الفور ولا يستجيب لي على الفور؟ ولننظر إلى كيفية استجابة الله طلب إبليس بقراءة الآية الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ١٣ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ١٥﴾ [الأعراف: 13-15]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٣٧ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٣٨﴾ [الحجر: 36-38]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ٨١﴾ [ص: 79-81]

وللحديث بقية.



# صلاة الإستسقاء

# الجزء الثاني



# صلاة الإستسقاء – الجزء الثاني

قبل إكمال الحديث في الموضوع الذي نطرحه هنا وهو صلاة الاستسقاء، لا بد من تجلية أمر واحد أثاره بعض القراء بعد قراءتهم لمقالتنا هذه (وكذلك لبعض مقالاتنا السابقة)، فلقد أثار كلامنا السابق حفيظة عدد من القراء، فظنوا أننا بهذا الطرح الذي نقدمه لا نؤمن بالأحاديث الشريفة التي تتحدث عن المواضيع التي كنا قد تطرقنا لها، وهم ينعتونا – حسب استنتاجاتهم هم من كلامنا نحن- أننا لا نؤمن إلا بما جاء في القرآن الكريم، وهم يعتقدون أن هذا عيب واضح في طرحنا، وكأن لسان حالهم يقول أن مثل هذه الأمور لا يمكن فهمها بمعزل عن السنة (أي ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول).

ونحن في هذا المقام نود أن نلفت انتباه القارئ الكريم إلى أمور أساسية تشكل القاعدة الصلبة في عقيدتنا التي نؤمن بها، وبالتالي فهي القاعدة التي نبني عليها الاستنباطات التي نخرج بها والتي تخالف – في معظم الأحوال- ما ذهب إليه جمهور العلماء، وما هو متداول في الفكر السائد عند أتباع معظم الفرق الإسلامية.

1. نحن لا نلتزم بأي مذهب أو طائفة في ما نذهب فيه وفيما نخلص إليه من استنباطات من كتاب الله، فنحن طلاب علم منهجنا أكاديمي بحت، نبحث عن الحقيقة أينما وجدت وحيثما حلت، فلا نتخذ موقفاً عقائدياً معيناً مسبقاً لنبحث عن أدلة على صدق موقفنا كما تفعل غالبية (وربما كل) الفرق الإسلامية، فعقيدتنا تتمثل بما يلي: ما جاء في كتاب الله هو ديننا وهو عقيدتنا مهما بلغ من الغرابة (كما قد يظن البعض) حتى لو خالفنا في ذلك كل أهل الأرض، فأنا أؤمن أني ذاهب إلى ربي لأقف بين يديه وحجتي هي: لقد جئتك ربي مؤمناً بكل ما قلت أنت، ولم آتيك متسلحاً بآراء مذهب أو طائفة، فإن أنت قبلتني فهي رحمتك وإن أنت طردتني فمن عدلك.

2. كما نود أن نجلب انتباه القارئ إلى حقيقة مفادها أننا لسنا علماء شريعة لنعرض عليكم الآراء العقائدية السائدة حول الموضوع الذي يتم طرحه، فتلك محلها كتب الأحكام، ونحن لسنا أكثر من طلاب "علم اللغة"، نحاول فهم النص اللغوي كما يرد في كتاب الله بالمنهجية التي نظن أنها صحيحة، وهو – على ما نظن- اللبنة الأولى لاتخاذ المواقف العقائدية. فننطلق من المبدأ الثابت المتمثل بأن كلام الله كلام دقيق مقصود بلفظه، فلا يجب ليّ عنق النص ليتكيف مع المواقف العقائدية المسبقة، ولا مبرر للتبديل أو التأويل غير المنضبط بالقواعد الواضحة، لأن ذلك سيجعل كلام الله عرضة للأهواء والأغراض، وسبباً في الاختلاف.

3. ولما كان الهدف الجوهري هو فهم النص القرآني لم يكن هناك داعي في هذا المقام أن نستجلب الأحاديث الشريفة للتأييد أو الرفض، فأهل الشريعة هم من يقوموا بمثل هذا العمل. وهنا حصل الخلط في الفهم عند البعض، فلقد ظن البعض أن خلو كلامنا من الأحاديث الشريفة ربما يفهم منه أننا لا نؤمن بالأحاديث النبوية، لذا نجد لزاماً التأكيد على أن خلو كلامنا من الأحاديث الشريفة لا يجب أن يفهم منه أننا لا نؤمن بها

4. ولكن يجب التنبيه إلى أمر غاية في الأهمية ربما يلخّص موقفنا فيما يخص موضوع الأحاديث الشريفة، فموقفنا يتلخص بالعبارة التالية: أقسم بالله العظيم أنني أؤمن إيماناً مطلقاً بكل ما صدر عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم من قول، كيف لا وهو الذي قال الله في حقه:

- ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم: 3-5]
- ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ۝٨٠﴾ [النساء: 80]

فبعد هذا الكلام الفصل، كيف لأحد (كائن من كان) أن يخرج ليقول أنني لا أؤمن بما قال صلى الله عليه وسلم؟ إن إيماني مطلق بكل ما قال صلى الله عليه وسلم، لا بل فإن لي موقف عقائدي يذهب إلى أبعد من هذا بكثير بخصوص قول النبي ربما لا أستطيع أن أبوح به أو أن أدخل بتفصيله هنا، وسأفرد له مقالة خاصة بحول الله وتوفيقه، وذلك لأهميته من منظور عقيدتي التي أؤمن بها، ومفاد القول هو عدم الفصل بين قول الله وقول نبيه الكريم، لذا فالإيمان بأحدهما لا يمكن فصله عن الإيمان بالآخر.

5. ولكن في المقام ذاته يجب التنبيه إلى ما يلي: ففي حين أن إيماني مطلق بكل كلمة (لا بل وبكل حرف) قالها صلى الله عليه وسلم، إلا إنني لا أؤمن إيماننا مطلقاً بكل ما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، فنحن ندعو إلى التفريق بين الإيمان بما قال صلى الله عليه وسلم والإيمان بما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا فرق كبير، ففي حين أن ما قاله النبي صحيح صادق ليس فيه ما يشوبه، لم يكن ما نقل عن النبي كذلك على كليته، فأهل الحديث أنفسهم قد وضعوا تصنيفات لما نقل عن النبي، فأوردوا الصحيح والحسن والضعيف وحتى المدسوس، لذا كان لا بد من التيقن والحذر عند التطرق لما نقل عن النبي، وللأسف فإن العامة (وبعض أهل الاختصاص) يستشهدوا بكل ما نقل عن النبي وكأنه صحيح لا شائبة فيه، فكم من الخطب والدروس وحتى بعض الأحكام بنيت على أحاديث لا ترقى إلى درجة حتى الضعيف من القول، وسأقدم مثالاً واحد هنا للتنبيه إلى هذا الأمر (هذا وقد قدمت أمثلة أخرى في مقالاتي السابقة حول هذا الموضوع، فالقارئ المهتم يستطيع الرجوع مثلاً إلى مقالة جدلية عذاب القبر ليقف عند مثل هذه الأمثلة)، أما المثال الذي أقدمه هنا فيتلخص بفحوى ما نقل عن النبي عن مسألة سب الدهر، فلقد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد نهى عن سب الدهر في حديث قدسي، حيث نقل عنه أنه قال:

جاء الحديث بألفاظ مختلفة منها

رواية مسلم : قال الله عز وجل : يؤذيني ابن آدم يقول : يا خيبة الدهر ، فلا يقولن أحدكم: يا خيبة الدهر ، فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما.

الحديث كذلك أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر.

ورواه البخاري بلفظ :يسب بنو آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار.

ومنها رواية للإمام أحمد : لا تسبوا الدهر فإن الله عز وجل قال : أنا الدهر الأيام والليالي لي أجددها وأبليها وآتي بملوك بعد ملوك ( وصححه الألباني)

وسؤالنا هنا يتمركز حول الاستفسار التالي: هل من الممكن أن يكون النبي قد قال مثل هذا الكلام؟ هل فعلاً نهى النبي عن سب الدهر؟

إننا نفهم أنه من الاستحالة بمكان أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد قال مثل هذا الكلام، وقد يرد البعض بالقول: ولم لا؟ لم لا يكون الرسول قد قال هذا الكلام فعلاً؟ نقول أن هذا مستحيل لأن مثل هذا القول يتناقض بشكل صارخ مع ما ورد في كتاب الله، ولكن كيف ذاك؟

**نقول:** دعنا ندقق أولا بفحوى الحديث نفسه بصيغه المختلفة، النبي ينهى الناس عن سب الدهر، أليس كذلك؟ نعم، لأن الحديث نفسه يبين أن الإله (الله نفسه) هو الدهر (انظر صيغ الحديث المختلفة). والآن، إن كان هذا الكلام صحيحاً، ما الذي سنفعله إذن بما ورد في كتاب الله في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [الجاثية: 23-26]

**فسؤالنا هو**: إذا كان الدهر هو الله كما جاء في الحديث المنقول، فما هي مشكلة الكافرين الذين ظنوا أن الذي يهلكهم هو الدهر كما جاء في الآية الكريمة (وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ)؟ ولم يحتاج الله أن يذكّر في الموقف نفسه بقوله " قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ "؟!!

إن أهل الحديث مطالبون أن يبيّنوا لنا كيف يكون ذلك إن كان ما نقل عن النبي هو فعلاً قول صحيح يحتج به، ولا أخال أنهم يستطيعون ذلك دون التحليق في سماء المجازات (انظر تأويلات هذا الحديث عند النووي، وابن عثيمين، الخ.)، وهو ما نرفضه رفضاً قاطعاً لأن هذا سيجعل كل يغني على ليلى آه (للخوض في هذا الافتراض نطلب من القارئ الكريم مراجعة ما ورد في مقالتنا تحت عنوان: جدلية الحقيقة والمجاز).

## عودة على بدء: صلاة الاستسقاء

لقد وقفنا في مقالتنا السابقة حول موضوع صلاة الاستسقاء عند زعمنا أن استجابة الدعاء غير مشروطة بالامتثال الكامل لأمر الله، وقد استشهدنا على هذا الزعم بما كان من الاستجابة الربانية للطلب الذي توجه به إبليس إلى ربه بعد أن كان قد عصى أمر ربه بالسجود لآدم. وقد قفلنا الجزء السابق من المقالة بالتساؤل التالي: إذا كنت أنا أفضل من إبليس، فلم استجاب الله لإبليس على الفور ولا يستجيب لي على الفور؟

وللإجابة على هذا التساؤل طلبنا إمعان التفكير بكيفية استجابة الله طلب إبليس بقراءة الآيات الكريمة التالية:

- ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف: 13-15]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: 36-38]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴿٨١﴾﴾ [ص: 79-81]

تدل هذه الآيات الكريمات أن الله قد استجاب طلب إبليس على الفور بالرغم من عظم الذنب الذي ارتكبه بحق الله، وهو عدم الامتثال لأمره بالسجود لآدم، إن الاستجابة الربانية لطلب إبليس تقودنا إلى الاستنتاج الخطير الذي مفاده أن تقبل الله للدعاء لا يمكن أن يكون مشروطاً بالامتثال الكامل لأمره، وإلاّ لما كان طلب إبليس مجاب، فبالرغم من عدم امتثال إبليس لأمر ربه إلا أن ذلك لم يحرمه من نعمة ربه قبول طلبه عندما توجه إليه بالقول:

- ﴿قَالَ أَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: 14]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحجر: 36]
- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [ص: 79]

والمدقق في الآيات الثلاثة السابقة يجد أن اثنتين منهما متطابقتين تماماً في اللفظ، وهما آيتا الحجر و ص، ولكنه يجد اختلافاً طفيفاً في آية الأعراف يتمثل في عدم وجود مفردة "ربِّ" كما هو الحال في الآيتين الاخريتين (الحجر و ص)، ولو أمعنا التفكير في هذا الاختلاف لربما خلصنا إلى أنه سواءً كانت الصيغة بوجود هذه المفردة أو عدم وجودها كانت الاستجابة الربانية حاصلة لا محالة، وخلاصة القول هي سواء كان التوجه بالإقرار بالربوبية في قول إبليس (قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ) أو جاءت دون ذلك الإقرار على نحو (قَالَ أَنظِرۡنِيٓ) جاء الرد الإلهي إيجابياً. فإبليس توجه إلى الله بطلب ولم يرد الله له طلبه، وهنا نعود لنسأل نفس السؤال الذي كررناه أكثر من مرة: لم لا يقبل الله طلبنا في الحال كما كان من أمر إبليس؟

ولا ننسى كذلك أن الله قد تقبّل طلبات الناس العاديين الذين لم يصلوا إلى درجة الإيمان الذي عليه الرسل والأنبياء، وليسوا بدرجة الكفر والجحود الذي أصرّ عليها إبليس، فها هي امرأة عمران – مثلاً- تنذر ما في بطنها خالصاً لربها:

- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 35-36]

فما كانت النتيجة خلاف ما دعت، فكان طلبها مستجاب في الحال (لا بل) وزيادة، فكفّلها زكريا ورزقها طيبات من عنده:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

وها هو رجل لا نعرف من هو أصلاً يسأل ربه بصيغة المتشكك المتردد كيف سيحيي قرية كانت خاوية على عروشها:

- ﴿أَوۡ كَٱلَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرۡيَةٖ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحۡيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۖ ... ٢٥٩﴾ [البقرة: 259]

فكانت النتيجة على النحو الذي نعلم:

- ﴿... فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمۡ لَبِثۡتَۖ قَالَ لَبِثۡتُ يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثۡتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرۡ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمۡ يَتَسَنَّهۡۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجۡعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكۡسُوهَا لَحۡمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعۡلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٥٩﴾ [البقرة: 259]

وها هم أهل الكهف يتوجهوا بالطلب التالي من ربهم:

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩ إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا ١٠﴾ [الكهف: 9-10]

فكان التقدير الرباني لهم على نحو ما نعلم:

- ﴿فَضَرَبۡنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمۡ فِي ٱلۡكَهۡفِ سِنِينَ عَدَدٗا ١١﴾ [الكهف: 11]

ويبين القرآن الكريم أن دعاء العبد ربه مجاب لا محالة حتى لو كان مشروطاً، فها هم في عرض البحر يتوجهوا إلى ربهم بالدعاء التالي:

- ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٣﴾ [الأنعام: 63]
- ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡمَوۡجُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ أُحِيطَ بِهِمۡ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنۡ أَنجَيۡتَنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٢٢﴾ [يونس: 22]

فكانت النتيجة على النحو التالي:

- ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٣﴾ [يونس: 23]

وها هم يشترطوا الصلاح بعد أن يتحصل لهم عطاء ربهم:

- ﴿۞ وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنۡ ءَاتَىٰنَا مِن فَضۡلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥﴾ [التوبة: 75]

وانظر ماذا كان من أمرهم بعد أن آتاهم الله من فضله:

- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضۡلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ٧٦﴾ [التوبة: 76]

وبعد هذا السرد الطويل فإننا نعود إلى الافتراض الذي بدأنا به وهو أننا لا نجد في كتاب الله رسولاً أو نبياً أو إنساناً عادياً أو حتى شيطاناً رجيماً يطلب من الله شيئاً بصيغة الدعاء إلاّ ويستجيب الله طلبه على نحو ما أراد (لا بل) وزيادة، دون مقايضة ولا تأجيل، وهذا - لا شك- هو الكرم الإلهي، وهذا ما نظن أنه المنطق الإلهي الذي لن يجعل للناس على الله حجة، فلا نجد مثالاً واحداً يبين لنا أنّ الله لم يستجب طلباً لأي إنسان بغض النظر عن درجة الإيمان الذي يتمتع بها ذاك الطالب، ولم نجد أن الله يؤجل له أجر دعاءه حتى يوم القيامة، ولم نجد أن الله يقايض شيئاً طلبه الإنسان بشيء آخر لم يطلبه حتى لو كان أفضل مما طلب. ولو استطاع علماؤنا الأجلاء أن يرشدوننا إلى مثال واحد فقط من كتاب الله على غير ما نزعم فنحن على استعداد للتخلي عن موقفنا هذا على الفور.

## الدعاء المستجاب

إن هذه الخلاصة تنقلنا إلى السؤال الأكبر وهو: متى يستجيب الله الدعاء؟ أو ما هو الدعاء المستجاب وما هو الدعاء غير المستجاب؟

**افتراء من عند أنفسنا**: إننا نؤمن أنك إذا دعوت الله شيئاً ولم يستجب الله دعاءك فإن لك بذلك حجة على ربك، فأنت لا شك ستكون في موقف قوي يوم القيامة تطالب ربك بذاك الدعاء الذي لم يستجبه لك، وأنت -لا شك- لن تقبل بدلاً منه ملء الأرض ذهباً بالضبط كما لا يرضى الله بملء الأرض ذهباً لتفتدي به نفسك. فهل يضع الإله نفسه في مثل هذا الموقف؟ الجواب كلا، لأن ذلك يعني أن الكافر ستكون له حجة على ربه، فلو لم يتقبل الله طلب إبليس بأن أخره إلى يوم الوقت المعلوم لكان لإبليس حجة على ربه سيطالبه بها يوم القيامة، ولن تكون خاتمته - بكل تأكيد- على نحو ما يصورها القرآن الكريم وهي أن إبليس ومن تبعه في النار يتحاجون فيها. فكيف المخرج من مثل هذا الموقف؟

**رأينا**: إنّ المخرج في تصورنا بسيط للغاية وهو على النحو التالي: إذا كان يوم القيامة وطالبت ربك بذاك الدعاء الذي لم يستجبه لك في الدنيا سيكون رد رب العالمين على النحو التالي: لا إنك لم تدعوني ولو دعوتني لاستجبت لك لأني قد اتخذت على نفسي عهداً على نحو:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِى وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: 186]

كيف ذاك ونحن ندعو الله؟ سيرد البعض بالقول.

نعم، هذا هو – في نظرنا- ما سيحصل، إننا نفهم موقفنا هذا من الآية الكريمة نفسها وبالتحديد من قول الحق:

- ﴿... أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ... ١٨٦﴾ [البقرة: 186]

دقق – عزيزي القارئ- في هذا الجزء من الآية الكريمة جيداً، فالله سبحانه لم يقل " أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ " وكفى، وإنما قال " أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ"، ولو دققنا النظر جيداً فيما قد يبدو للوهلة الأولى أنه تكرار لفظي وحشو في الكلام لخرجنا بعبرة عظيمة، وهي أن ذاك أبعد ما يكون عن التكرار أو الحشو وإنما هو المعنى المقصود بلفظه، فالله عندما يقول " أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ" نستطيع أن نخلص من هذا القول إلى حقيقة بسيطة جداً مفادها أنه هناك داع ولكنه لا يدعو، وهناك بالمقابل داع يدعو، والله – بنص الآية الكريمة- لا يتقبل من الداع إلا إذا دعاه:

- ﴿... أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ... ١٨٦﴾ [البقرة: 186]

وبتطبيق ذلك على واقعنا، فإننا نقول أنه عندما نرفع نحن أيدينا فيما نظن أنه دعاء، فإن كل واحد منا يسمى داع ولكنه لا يكون يدعوا، فحتى يستجيب الله دعاءك لا يكفي أن تكون داع ولكن يجب أن تدعو، فلو كان الشرط فقط وجود الداع لجاءت الآية الكريمة على نحو:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِى وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: 186]

ولما كان هناك حاجة لعبارة "إِذَا دَعَانِ"، صحيح أنك تظن أنك تدعو الله ولكنك في الحقيقة لم تفعل، وكيف يكون ذلك؟ نقول إن هذا بالضبط ما سنحاول تبيانه – بحول الله وتوفيقه- في الجزء التالي من هذه المقالة.

أما بعد،

إننا نفهم أنّ الدعاء هو عبارة عن رسالة من الداع إلى المدعو، ولا شك أن الرسالة يمكن أن لا تصل إذا حدث خلل في ركن من أركانها، وأركان الرسالة هي المرسل إليه والمرسل والرسالة والناقل.

1. المرسل إليه (المدعو أو recepient باللسان الأعجمي): فهل لو قمت بإرسال رسالة إلى شخص ما، وقام هذا الشخص قبل أن تصله رسالتك بتغير مكان سكنه أو مكان عمله الذي كتبته أنت على الرسالة، فهل كانت تلك الرسالة ستصل إلى المرسل إليه؟ وهل كنت ستتلقى في يوم من الأيام رداً على رسالتك التي لم تصل المرسل إليه أصلاً بسبب تغيير العنوان؟ كلا، لأن هناك خلل حصل عند طرف المرسل إليه؟
2. المرسل (الداع "sender): فهل لو قام المرسل بكتابة رسالة إلى شخص ما، ولكن هذا المرسل لم يكتب على الرسالة نفسها اسمه أو عنوانه فهل يستطيع المرسل إليه أن يرد على رسالته؟ الجواب كلا، لأن هناك خلل حصل عند طرف المرسل.
3. الرسالة (message): هل لو قمت بكتابة رسالة وكتبت عليها عنوانك وعنوان المرسل إليه بشكل صحيح، ولكنك لم تضع عليها الطوابع البريدية التي يطلبها الموصل، هل كانت الرسالة ستصل المرسل إليه؟ وهل كان الرد على رسالتك سيأتيك في يوم من الأيام؟ الجواب لا، لأن هناك خلل حصل في طرف الرسالة نفسها.
4. الموصل (carrier): هل لو قمت بكتابة رسالة وكتبت عليها عنوانك وعنوان المرسل إليه ووضعت عليها الطوابع البريدية اللازمة ولكنك قمت بعد ذلك بوضع تلك الرسالة في درج مكتبك، ولم تودعها إلى خدمة البريد (الموصل)، فهل كانت تلك الرسالة ستصل إلى المرسل إليه؟ وهل كنت ستتلقى جواباً على رسالتك تلك؟ الجواب: كلا، لأن هناك خلل حصل في طريقة إرسال الرسالة أو الجهة الحاملة للرسالة، وهكذا.

ولمّا كان الدعاء هو عبارة عن رسالة من العبد (المرسل) إلى ربه (المرسل إليه)، كان لا بد من تفقد مواطن الخلل الذي نجم عنها عدم الإجابة الربانية على رسالتك تلك. في الجزء التالي من المقالة سنقحم أنفسنا في البحث عن ذاك الخلل، سألين الله –عز وجل – أن يهدينا سواء السبيل.

أما بعد،

## ما هي أطراف رسالة الدعاء؟

لو أمعنا النظر في الدعاء كرسالة من العبد إلى ربه لوجدنا أن أركان هذه الرسالة –على خلاف الرسائل الأرضية- ثلاثة فقط وليست أربعة، ففي رسالة الدعاء من العبد إلى ربه لا نجد إلا المرسل وهو العبد (أو الداع) والمرسل إليه وهو الإله نفسه (المدعو) والرسالة (أي الدعاء)، ويغيب طرف الناقل للرسالة، فالقراءة الدقيقة للآية الكريمة السابقة تبين عدم وجود الوسيط أو الناقل للرسالة بين العبد وربه وذلك بسب قرب المرسل إليه من المرسل، ولنعيد الآية نفسها لإمعان التفكير فيها من هذا الزاوية:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

فالإله – بنص الآية- قريب من العبد، لذا تنتفي الحاجة لوجود الناقل (أو الموصل)، فأنت لا تبعث برسالة بريدية لمن يسكن بجوارك في الحي، أو يعمل معك في نفس المكان (إلاّ إذا كان الخطاب بينك وبينه مفقوداً لسبب ما أو بسبب روتين وظيفي معين)، وهذه أسباب بجملها منتفية الحصول في حالة الدعاء بين العبد وربه. فخط الاتصال بين العبد وربه مفتوح على الدوام وليس هناك تكلّف في التواصل بين العبد مع ربه، وذلك لأن الإله –كما تشير الآية السابقة قريب:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ... ﴾ [البقرة: 186]

## ما هو القرب الإلهي؟

نتوقف هنا للحظة للحديث عن "القرب الإلهي"، الذي نظن أنه السبب لانتفاء الحاجة إلى وجود الناقل (أو الموصل) لرسالة العبد إلى ربه، ولكن لا يظنن أحد أن القرب الإلهي تعني الملاصقة كما ربما يعني مفهوم القرب المكاني بالنسبة للناس، فلا بد من وجود المسافة الزمنية والمكانية بين الإله والعبد، فمفردة القرب بالمعنى القرآني تفيد وجود فاصل مكاني بين الطرفين، ولكن لمّا كانت فكرة القرب والبعد مسألة نسبية بحد ذاتها، كان لابد من تجليتها، فبالنسبة للبشر أنفسهم يكون أحياناً ما تراه أنت قريب بعيداً بالنسبة لي أنا، والعكس صحيح، وهذه النسبية موجودة بين الإله والعبيد، وهو ما يمكن أن نخلص إليه من قول الحق:

- ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾﴾ [المعارج: 4-7]

فاليوم الذي يبعد خمسين ألف سنه هو بالنسبة لنا يوم بعيد إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ، ولكنه بالنسبة للإله فهو – بلا شك- يوم قريب وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ، فخمسين ألف سنة بالنسبة للإله يعتبر قرباً، نستنتج إذاً أنّ المسافة الزمنية لنا لا تتطابق في بعدها وقربها مع المسافة الزمنية للإله، فحتى يوم القيامة هو بالنسبة للإله يوم قريب:

- ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾﴾ [النبأ: 40]
- ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾﴾ [الإسراء: 51]

ولكن بالنسبة للإنسان فالقرب هو ما لا يتجاوز نطاق حياته الدنيا:

- ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾﴾ [إبراهيم: 44]

- ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ [المنافقون: 10]
- ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الأحزاب: 63]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: 17]

وربما يكون أدنى من أجله كالتوبة

- ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء: 17]

أو كالنصر

- ﴿۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾ [الفتح: 18]
- ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: 27]
- ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف: 13]
- ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة: 214]

أو ربما كليلة واحدة:

- ﴿قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: 81]

وكذلك هو القرب المكاني:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: 31]
- ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾﴾ [سبأ: 51]
- ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾ [ق: 41]

فالمكان نفسه بالنسبة للناس بعيد ولكنه بالنسبة للإله قريب، ويبدو هذا جلياً عند عقد مقارنة ما جاء في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ فَزِعُواْ فَلَا فَوۡتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ۝٥١﴾ [سبأ: 51]
- ﴿وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٥٢﴾ [سبأ: 52]

إن السرد السابق يوضح الفصل المكاني بين الإله والناس، ويتعزز هذا الفصل بوجود فكرة المقربين من الإله، فبالرغم من القرب المكاني بين الإله والناس كافة (فالله قريب من الناس جميعاً) إلاّ أنّ هناك من هم من المقربين:

- ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ۝١٧٢﴾ [النساء: 172]
- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝١١ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝١٢﴾ [الواقعة: 10-12]
- ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ۝١٨ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝١٩ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝٢٠ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢١﴾ [المطففين: 18-21]
- ﴿يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ۝٢٧ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ۝٢٨﴾ [المطففين: 25-28]

وقد قرّب الله إليه بعض أنبياءه ورسله:

- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ [آل عمران: 45]
- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ۝٥٢﴾ [مريم: 52]

فحتى فرعون نفسه كان له مقربين:

- ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝١١٤﴾ [الأعراف: 114]
- ﴿قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ۝٤٢﴾ [الشعراء: 42]

فالقرآن إذاً يميز بين القريب والمقرّب، وخلاصة القول أنه في حين أنّ الله قريب من العباد جميعاً إلاّ أن هناك من عباده من هم من المقربين عنده، وبالتالي فالقرب من الإله هي درجات، ولكن لا يمكن أن يكون هناك التصاق بالإله في أي درجة منها، فحتى الملائكة المقربون ليسوا ملتصقين بالإله. لهذا نجد الفاصل المكاني بين الطرفين، فالله طلب من آدم وزوجه عدم الاقتراب من الشجرة، وطلب من عبادة أن لا يقربوا الزنا ولا يقربوا مال اليتيم وأن لا يقربوا الصلاة وهم سكارى، وهكذا.

لذا يجب أن يستحضر الإنسان في نفسه فكرة القرب الإلهي منه، ولكن ذلك لا يعني وجود الإله ملتصقاً مكانياً معه (كأن يتصور الإنسان الداع أنّ الله موجود عنده في نفس الغرفة التي يدعو فيها في جنح الظلام مثلاً)، ولكن بالرغم من هذا البعد المكاني بالنسبة لنا إلاّ أن تلك المسافة المكانية الشاسعة لا تمثل بعداً بالنسبة للإله نفسه، بالضبط كما لا يمثل بعد اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة (والذي نراه نحن بعيدا) بعداً زمنياً بالنسبة للإله.

**النتيجة: هناك فاصل مكاني بين الإنسان وربه إلاّ أن هذا الفاصل المكاني بالرغم من بعده بالنسبة لنا نحن البشر إلا أنه غير بعيد بالنسبة للإله نفسه لذا قال عن نفسه:**

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

صحيح أننا قد نكون نحن بعيدين عن الإله ولكن الإله قريب منا. ولو أمعنا التفكير بالآية نفسها لوجدنا أن الله لا يقر بأننا قريبين منه ولكنه يؤكد حقيقة ثابتة وهي أنه هو قريب منا، وفي هذا فرق كبير، هذا بالرغم أن المسافة المكانية بين الطرفين هي نفس المسافة. ولو استخدمنا التشبيه لتقريب الصورة إلى الذهن (ولله المثل الأعلى) لقلنا: تخيل أنك تسكن في مدينة ما وصديقك يسكن في مدينة أخرى تبعد عن مدينتك 1000 كم وتريدان أن تتزاورا، ولكنك أنت ستذهب إليه ماشياً وهو سيأتيك بقطار تصل سرعته 500كم/س، فبالرغم أن المسافة بينك وبينه هي نفس المسافة لكن صديقك بالنسبة إليك بعيد إن أردت أن تزوره ماشياً على الأقدام أما أنت بالنسبة له فإنك قريب مادام أنه سيقله القطار السريع.

## هل الخلل في المرسل إليه؟

ولما كان المرسل إليه هو الله نفسه، فإننا نستبعد - بكل إيمان يقيني- أن يكون الخلل في ذاك الطرف، فالله على استعداد لاستجابة دعوة الداع إذا دعاه، فذاك لا يعجزه ولا ينقص من ملكه شيئاً. ولكن لا بد من بعض الوقفات لإثارة جملة من التصورات التي غالباً ما يسوّقها الفكر الإسلامي، سنتعرض لبعضها لنتيقن من صحة مثل هذه التصورات.

### أولاً، وقت الدعاء

غالباً ما سمعنا من أهل العلم أن هناك أوقاتاً يكون الدعاء فيها أنفع وتكون فرص الاستجابة فيها أكبر، مثل أوقات السحر وشهر رمضان وليلة القدر، وغيرها. فهل فعلاً لمثل هذا التصور أساس في العقيدة التي تتمحور حول التأكيد الرباني

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

## ثانياً، مكان الدعاء

وقد سمعنا كذلك أن هناك أماكن يستحب فيها الدعاء، مثل المساجد والبيت الحرام وعند مشاهدة الكعبة للوهلة الأولى وجبل عرفات وغيرها. فهل فعلاً لمثل هذا التصور أساس في العقيدة التي تتمحور حول التأكيد الرباني:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: 186]

إن تتبع المواقف التي استجاب الله فيها دعاء عباده الصالح منهم والطالح لا يشير بأي شكل من الأشكال إلى توافر عنصر زماني أو مكاني محدد بعينه، فإبليس طلب من ربه أن ينظره إلى يوم البعث في ذاك المكان الأول للخلق، وتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه في تلك الجنة، ودعا إبراهيم ربه في مكان وزمان غير محددين وكذلك فعل جميع الأنبياء والعابدين، وجاء طلب بعضهم في البر وبعضهم في البحر، فتم لكل واحد منهم طلبه في زمانه ومكانه اللذين كانا يتواجد فيهما، فلم يرتبط الدعاء بعنصر المكان أو الزمان في أي دعوة من العبد لربه. وهناك لفتة طريفة في قصة دعاء زكريا ربه لابد من التنويه لها في هذا المقام:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: 37-39]

فقد يستدل البعض من هذا الموقف أن زكريا كان يصلي في المحراب عندما نادته الملائكة بأن الله يستجيب طلبه، فيروجوا لنظرية ارتباط الدعاء بالمكان، ولكننا نرفض مثل هذا التصور لسبب بسيط وهو ما سبق هذا الكلام في السياق القرآني نفسه، فالآيات السابقة تدل على أن زكريا دعا ربه أن يهب له الذرية لحظة ما رءا من أمر مريم التي كفلها الله إياه، ولو تتبعنا ما فعل زكريا بعد ما وجد من أمر رزق مريم الذي كان يأتيها من ربها لوجدنا السياق القرآني على النحو التالي:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: 38]

إن هذه الآية الكريمة ربما تشير إلى ما ذهبنا إليه سابقاً وهو احتمالية أن يكون هناك داع ولا يكون هناك دعاء، فحتى يستجيب الله الدعاء لابد للداع أن يدعو، فلربما كانت فكرة الذرية الطيبة تسيطر على زكريا قبل هذه الحادثة، فمن غير المنطقي أن يكون زكريا قد فكر بالأمر للمرة الأولى في ذلك الموقف، ولكن الملفت للانتباه هو أن القرآن الكريم يثبت أن الدعاء إن كان بدر من زكريا قبل ذلك الموقف لم يكن يسمى دعاء، فلقد كان زكريا داع ولكنه لم يكن يدعو، فالآية الكريمة تؤكد أنه لم يحصل من زكريا فعل الدعاء إلا في تلك اللحظة وفي ذلك المكان، لذا جاء قول الحق على نحو " هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ "، فلو كان زكريا قد

دعا ربه قبل تلك الحادثة فهو من باب ما يحصل معنا نحن الذين نظن أننا ندعو الله ولكننا في الحقيقة لا نفعل. فكل ما بدر من زكريا قبل هذا الموقف (إن وجد) لم يكن ليحتسب من باب الدعاء، وما كان زكريا أكثر من داع ولكنه أصبح داع يدعو في ذلك الموقف فقط.

فالاستجابة الربانية لطلب زكريا لا علاقة له بعامل الزمان أو المكان، ولكنه كان النتيجة الحتمية لما فعل زكريا في ذلك الموقف وهو " هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ "، فأصبح فعله من باب " أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ ".

**الخلاصة**: سأكون ممتناً لأي شخص يقدم لنا مثالاً واحدا من كتاب الله يبين أن الدعاء كان مرتبطاً بعنصر الزمان أو المكان.

## هل الخلل في المرسل؟

إذا كنا قد خلصنا إلى أن الخلل ليس في المرسل إليه (وهو الله نفسه) لأن الله على استعداد لاستجابة الدعاء فذاك لا يعجزه ولا ينقص من ملكه شيئاً، وهو من استن سنته على نحو " أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ"، وإذا كنا قد وصلنا إلى أن الخلل ليس في الموصل لأنه أصلاً غير موجود في حالة الدعاء، فليس هناك ناقل للرسالة التي يبعثها الإنسان إلى ربه لأن الإله (وليس الإنسان) قريب من العباد، فلربما يكون الخلل في الطرف المقابل وهو المرسل (أنا وأنت) الذي يمد يده إلى ربه ليلبي له الدعاء. فهل يمكن أن يكون الخلل في هذا الطرف؟

لقد ركّز جل الفكر الإسلامي على أن الداع هو ركيزة أساسية في الدعاء، وقد صوّروا لنا الأمر على نحو أن هناك من يستجيب الله له الدعاء وهناك من لا يستجيب الله له الدعاء، وعزوا ذلك إلى الوازع الإيماني عند الإنسان، وبكأن لسان حالهم يقول: أن الله يستجيب طلب الإنسان المؤمن فقط، ولكننا نرد على مثل هذا الزعم بما ذكرناه سابقاً من موقف إبليس نفسه؟ وهل هناك أكبر شراً من إبليس نفسه؟ فكيف بالله يستجيب له طلبه؟ وماذا عن الذين ركبوا البحر فدعوا الله مخلصين له الدين ثم انقلبوا على أنفسهم؟ وماذا عن الذين دعوا الله لئن آتاهما صالحاً ليصدقن وليكوناً من الصالحين ثم ما أن آتاهم الله ما طلبوا حتى نكسوا على رؤوسهم؟ هل كانوا إذاً يستغفلون الإله؟ ألم يكن الله يعلم ما ستؤول إليه الأمور؟ فكيف به يستجيب لطلبهم لينقلبوا بعد ذلك ويرتدوا على أعقابهم بعد أن حصلوا على مطلبهم؟

إننا نخلص إلى نتيجة مفادها أن استجابة الدعاء لا علاقة لها بالوازع الديني، وإلاّ لما استجاب الله دعاء غير المؤمن، والأمثلة وافرة في كتاب الله على استجابته لدعاء المنافقين والكفار وعلى رأسهم زعيمهم إبليس الذي كان من الكافرين، إن تدبر الآيات الكريمات التالية من سورة ص مرة أخرى من هذا المنظور تؤكد استجابة الله لدعاء وطلب أشد الناس عداوة له وهو إبليس المطرود الخارج من رحمة ربه:

- ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ

رَجِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٧٨ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ
يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ۝٨١﴾ [ص: 73-81]

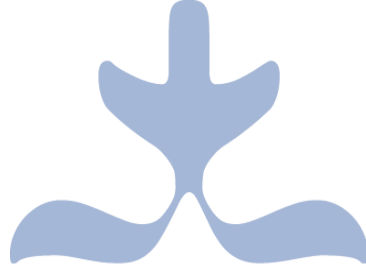
ومما لا شك فيه أنه لو كان الأمر مرتبطاً بالامتثال الكامل لأمر الله لوجدنا التباين جلياً واضحاً، فكيف بإبليس يرفض الامتثال لأمر الله وبالمقابل يكون طلبه مستجاب فوراً؟ وكيف بآدم لا يقف عند الأمر الإلهي بعدم الاقتراب من الشجرة ويتقلى من ربه كلمات فيتوب عليه؟ وكيف بذي النون يخرج مغاضباً فيظن أن لن نقدر عليه وما هي إلا سويعات فيناجي ربه في بطن الحوت، فيتقبل الله منه الدعاء؟ وكيف بموسى يكز الرجل فيقضي عليه فيعود إلى ربه فيستغفره، فيغفر له؟ فهل أمتثل هؤلاء لأمر ربهم بشكل كامل حتى يتحقق لهم ما أرادوا؟ كلا، وألف كلا.

وبنفس المنطق فإننا نقول: ربما لا يستجيب الله طلبي لضعف وازعي الديني، ولكن لم لا يستجيب الله لطلبك وأنت تملك ذلك الوازع الكبير؟ ثم لنعود إلى مشهد صلاة الاستسقاء الذي صورناه في المقدمة، فلقد احتشد الألوف من البشر للصلاة في نفس الموقف، فإن كان الله لم يستجب لطلب الغالبية العظمى منهم الذين ينقصهم الوازع الإيماني اللازم لقبول الدعاء كما يظن البعض، ألم يكن في ذاك الجمع عدد قليل من الذين لديهم فعلاً وازع إيماني كبير؟ هل من المعقول أن كل ذاك الحشد خلا ولو من شخص واحد لا يرد الله له طلباً؟ ثم، ما بال صاحبنا الذي كان يجهش في البكاء طوال تلك الصلاة؟ وما بال شيخنا الذي...؟ وما بال النسوة الذين حظروا الصلاة؟ وما بال الغلمان والأطفال الذين تكبدوا مشقة السفر بكل سذاجة وصدق؟ وقبل هذا وذاك، ما ذنب تلك الدواب التي كانت تأكل من بقايا النفايات التي لم تكنس جيداً؟ ألا تستحق شيئا من خضرة الأرض وأعشاب الطبيعة الطازجة؟!

إن صح ما نزعم، فإننا نصل إلى النتيجة التي مفادها أن خلل الدعاء لا يكمن في الداع (كما لم يكن في المدعو وفي الناقل)، ويبقى طرف واحد هو محط الخلل: إنها الرسالة نفسها.

وهذا ما سنحاول التعرض له في الجزء الثالث من المقالة، لذا فللحديث بقية – بحول الله وتوفيقه.

بقلم د. رشيد الجراح



# صلاة الإستسقاء

# الجزء الثالث



# صلاة الإستسقاء – الجزء الثالث

خلصنا في مقالتنا السابقة إلى الاعتقاد بأن للدعاء (خلافاً للرسائل الأرضية) ثلاثة أركان أساسية فقط، هي الداع والمدعو والرسالة، وليس هناك ناقل (أو وساطة) بين العبد وربه، لذا كان لزاماً أن يكون الخلل الذي نجم عنه عدم الاستجابة الربانية لدعاء العبد في واحدة من أطراف الرسالة الثلاث هذه، وقد تحصل لنا الإيمان اليقيني أن الخلل لا يمكن أن يكون في طرف المدعو وهو الإله نفسه، لأن الله قد جعل إجابة الدعاء من سننه الكونيّة التي لا تبديل لها ولا تحويل، فالإله لا يعجزه استجابة طلب من يدعوه، ولا ينقص ذاك من ملكه شيئاً، وهو الذي قطع على نفسه بأن يستجيب دعوة الداع إذا دعاه، قال –تعالى-:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

لا بل فقد كان الكرم الإلهي يتمثل في حث عباده على الدعاء، وإلزام نفسه بالإجابة، قال تعالى:

- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60]

وقد بان لنا عدم وجود مثال واحد في كتاب الله يطلب فيه مخلوق شيئاً من ربه ولا يجيب الله طلبه ذاك في الحال. لذا فقد خلصنا إلى النتيجة التي مفادها أن الخلل لا يكمن في طرف المدعو، وإنما في واحد من الطرفين المتبقيين وهما الداع (الإنسان الذي يدعو ربه) أو الرسالة (الدعاء نفسه).

وبعد تفقد طرف الداع (أو الإنسان الطالب) تبين لنا صحة زعمنا باستحالة أن يكون الخلل في هذا الطرف، فحاولنا رد الفكر السائد الذي يربط الدعاء بالوازع الإيماني عند الداع، فبعد تفقد السياقات القرآنية التي تبين استجابة الله لطلب الخلق، أصبح جلياً لنا أن الله قد استجاب طلب كل من دعاه بغض النظر عن الوازع الإيماني لذاك الطالب. فكان التنوع واضحاً في شخصية الطالب، فقد أجاب الله طلب أشد الخلق عداوة له وهو إبليس:

- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: 74]
- ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [البقرة: 98]

فبالرغم من كفر إبليس (وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ) وحصول العداوة الربانية له نتيجة كفره ذاك (فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ)، كانت الإجابة الربانية لطلب إبليس متحصلة دون تأجيل ولا تأخير:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾﴾ [الحجر: 36-38]

وتوافرت الأدلة على استجابة الله كذلك دعاء عباده الصالحين من الأنبياء، كدعاء ذا النون وأيوب وزكريا وموسى، واستجاب الله كذلك دعاء الناس العاديين، كدعاء امرأة عمران وأهل الكهف، وحتى دعاء المنافقين كالذين دعوا الله مخلصين له الدين بصيغة لئن... ثم ارتدوا على أعقابهم بعد الاستجابة الربانية الايجابية لدعائهم.

وبناءً عليه، فقد خلص موقفنا من الدعاء إلى الاعتقاد المبدئي في رفضنا (جملة وتفصيلاً) الموقف الصريح أو الضمني الذي يتبناه كثير من أهل الفكر الإسلامي المتمثل في ربط استجابة الدعاء بالوازع الإيماني عند الداع، وذلك لأنّ الأمثلة وافرة في كتاب الله التي ترد مثل ذاك الطرح.

**افتراء من عند أنفسنا**: والحالة كذلك، كان لزاماً أن نفترض أن الخلل الذي ينجم عنه عدم الاستجابة الربانية الايجابية والفورية للدعاء تكمن في الطرف الثالث والأخير وهو الرسالة نفسها، فالرسالة هي – في ظننا- سبب البلاء الذي نعاني منه، وتصحيح الخلل يتطلب البحث عنه في الموطن الصحيح، فحتى يستجيب الله دعاءنا لابد من تصحيح الرسائل التي نبعثها لله، فمادامت الرسالة غير صحيحة لا يمكن – نحن نفتري القول- أن نتوقع الاستجابة الربانية، لذا يجب علينا إمعان التفكير في شكل ومضمون رسائلنا التي نبعثها صباح مساء، والتي أظن أنها لا تتجاوز رؤوسنا في طريقها إلى الطرف الآخر وهو الإله الواحد الأحد.

إنّ هذا الزعم يتطلب منّا البحث في ماهية الرسالة التي يجب أن نبعثها إلى ربنا في كل ما نطلب منه حتى تتحصل الاستجابة الفورية لنا، ولكي يتم لنا ذاك، فإننا نرى أن المنفذ الحقيقي الذي يوصلنا إلى غايتنا هو الدراسة الدقيقة للرسائل التي بعثها غيرنا وتمت الاستجابة الربانية لهم بما طلبوا. لهذا تصبح جميع الرسائل التي بعثها خلق الله إلى ربهم (والمتوافرة لنا في كتاب الله) محل الدراسة الدقيقة التي نسأل الله أن يهدينا إليها، فمنهجيتنا إذاً تتلخص في تناول كل دعاء تمت الإجابة الربانية عليه بشيء من التفصيل، لنخلص منها جميعاً – إن أذن الله لنا بشيء من علمه - إلى الأركان الأساسية الواجب توافرها في أي رسالة من الخلق إلى الخالق إن كان المراد هو الرد الايجابي من الخالق إلى الخلق.

أما بعد،

## التميز بين الدعاء والتمني

غالباً ما خلط الناس بين الدعاء (كطلب يقصد منه الإجابة) والتمني (الذي لا يمكن أن تتحصل من وراءه الإجابة الربانية). فمعظم طلبات الناس التي يظنون أنها تقع في باب الدعاء ليست أكثر من تمنيات لا يمكن بأي شكل من الأشكال أن تنتج عنها استجابة ربانية، وحتى لا يبقى هذا الكلام في إطاره النظري لابد من تقديم الدليل العملي على التفريق بين الدعاء من جهة والتمني من جهة أخرى، وهنا سنقدم عدة أمثلة من كتاب الله قد تبدو للوهلة الأولى أنها طلبات لم تتحصل الاستجابة عليها، ولكنها في الحقيقة لا تعدو أكثر من أمنيات لا تتطلب الإجابة الربانية أصلاً.

فها هي مريم بنت عمران التي نعرف جميعاً قصتها، تتلفظ بالكلمات التالية التي ربما يظن البعض أن الله لم يستجيبها:

- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]

نحن نفتري الظن أن مريم هنا تتمنى (ولا تطلب)، فهي تتمنى لو أنها ماتت قبل هذه الحادثة، وليس أدل على ظننا هذا من صيغة الكلام الذي قالته مريم، فهي تقول بملء فيها يَا لَيْتَنِي، ولما كان هذا لا يعدو أكثر من أمنية لم تتحقق لها كما تمنت، فالله لم يستجيب طلبها ذاك، وإنما جاءها التطمين الإلهي على غير ما تمنت:

- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ٢٤﴾ [مريم: 24]

فلو كان كلام مريم ذاك يقع في باب الدعاء، لتطلّب الاستجابة الربانية عليه بأن أماتها قبل تلك الحادثة.

---

**نتيجة مفتراة: لا تتوجه إلى ربك بصيغة " قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي " ثم تتوقع منه أن يجيب طلبك على نحو ما تمنيت، لأن الله الذي تعهد باستجابة الدعاء لم يلزم نفسه بإجابة الأمنيات.**

---

وها هو نبي الله لوط يتمنى ولا يطلب:

- ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠﴾ [هود: 80]

ونحن نظن أن طلبه جاء على صيغة أمنية بدليل (قَالَ لَوۡ أَنَّ)، فلم يكن الرد الإلهي بمنحه تلك القوة التي تمناها، وإنما جاء على غير ما طلب:

- ﴿قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ٨٠ قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيۡكَۖ فَأَسۡرِ بِأَهۡلِكَ بِقِطۡعٖ مِّنَ ٱلَّيۡلِ وَلَا يَلۡتَفِتۡ مِنكُمۡ أَحَدٌ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمۡۚ إِنَّ مَوۡعِدَهُمُ ٱلصُّبۡحُۚ أَلَيۡسَ ٱلصُّبۡحُ بِقَرِيبٖ ٨١﴾ [هود: 80-81]

---

**نتيجة مفتراة: لا تتوجه إلى ربك بصيغة " قَالَ لَوۡ أَنَّ " ثم تتوقع منه أن يجيب طلبك على نحو ما تمنيت، لأن الله الذي تعهد باستجابة الدعاء لم يلزم نفسه بإجابة الأمنيات.**

---

**افتراء من عند أنفسنا**: نحن نظن أنه من قبيل الاستحالة أن يعتبر ما جال في خاطر مريم بنت عمران في تلك اللحظة وتلفظت به، أو ما راود لوط ونطق به، هو من باب الدعاء، وإلا لكان لزاماً أن نفترض أن الله لم يجب دعاءهما على نحو ما رغبوا وتمنوا. والجميل في التصوير القرآني أننا سنجد لاحقاً عند تفقد صيغ

الدعاء التي تمت الاستجابة الربانية لها بالإيجاب لا تتطابق بأي شكل من الأشكال مع الصيغة التي غلفت بها مريم رغبتها تلك أو الصيغة التي تلفظ بها لوط في تلك اللحظة.

أما المثال الآخر الذي نقدمه فهو مثال دعوة أو طلب زكريا الذي قدمناه سابقاً ولكننا سنعيده هنا لنتفحصه من هذا الجانب. ربما يعلم الجميع أن الاستجابة الربانية لطلب زكريا أن يرزقه الذرية التي ترثه قد تحصلت له بعد أن بلغ من الكبر عتيّا، وهنا نطرح التساؤل التالي: هل فعلاً لم يتوجه زكريا إلى ربه طالباً الذرية إلا بعد أن بلغ من الكبر عتيّاً؟ فقد قال الله في حقه:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: 38]

إننا نظن أن الذرية الصالحة ربما لم تفارق فكر زكريا طوال سنين زواجه، فمن غير الطبيعي الافتراض بأن الفكرة قد وقعت في قلبه في تلك اللحظة فقط، فطلبها من ربه حينئذ، فتمت الاستجابة لها في الحال، فذاك أمر ينافي منطق الحياة وطبيعة البشر، ولكننا نظن أن الفكرة حتى وإن وقعت في قلب الرجل قبل تلك اللحظة فقد كانت تراوده من باب التمني فقط، ولم تنتقل إلى باب الدعاء إلا في تلك اللحظة عندما استجاب الله دعاءه وهو ما نظن أنه أحد الأسباب التي دعت لوجود مفردة هنالك في ذلك السياق القرآني، وبكلمات أخرى نقول ربما كاذ زكريا ن يتمنى الذرية الطيبة، ولكنه لم يترجم أمنيته تلك إلى دعاء إلاّ في تلك اللحظة، وهنا تبرز الدقة والروعة القرآنية في تصوير المشهد في الآية الكريمة نفسها، قال –تعالى-:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: 38]

فما فائدة مفردة "هُنَالِكَ" في هذا السياق القرآني؟ إننا نفهم المعنى على النحو التالي: لقد كانت فكرة الذرية الطيبة واقعة في قلب الرجل ولكنه لم يطلبها من ربه على صيغة دعاء إلا " هُنَالِكَ"، أي في ذاك المكان وفي تلك اللحظة. ولمن لماذا؟ أي لماذا في تلك اللحظة بالذات أصبحت فكرة الذرية الصالحة في قلب زكريا واقعة في باب الدعاء بعدما مكثت سنين طويلة من عمره في باب التمني كما نزعم؟

رأينا: نحن نظن أن الإجابة على هذا السؤال متوافرة في الآية الكريمة التالية حيث علّل زكريا طلبه للذرية في تلك اللحظة على وجه التحديد:

- ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5]

ولمّا كان زكريا قد خاف الموالي (وهي في زعمنا ذرية مريم القادمة)، طلب من ربه الوليّ الذي لا يرثه هو فقط وإنما يرث من آل يعقوب أيضاً:

- ﴿يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 6]

**افتراء من عند أنفسنا**: إنه الصراع بين آل يعقوب وآل عمران (وهذا ما سنحاول أن نخوض في تفاصيله - إن أذن الله لنا بشيء من علمه- عندما نتحدث عن المسيح عيسى بن مريم، فالله أسأل أن ينفذ قوله بمشيئته وإرادته لي الإحاطة بشيء من علمه إنه هو السميع المجيب).

---

**نتيجة مفتراة: إن زعمنا هذا يوصلنا إلى الاعتقاد التالي: لا يستجيب الله أمانيك وإنما يستجيب دعاءك، فمهما تحصل لديك من أمنيات فإن الله لم يتعهد على نفسه أن يجيبها، ولكنه تعهد على نفسه أن يستجيب دعائك، لذا جاءت الدقة القرآنية في قوله تعالى:**

---

- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [النمل: 62]

فالمدقق في هذه الآية الكريمة يجد المعنى واضحاً من وجود عبارة مثل " إِذَا دَعَاهُ " في هذا السياق القرآني، فلو كانت تلك العبارة غير ضرورية لجاء قول الحق على نحو:

- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾ [النمل: 62]

فالله إذاً لا يجيب المضطر لمجرد أنه مضطر مادام أنه يتمنى، فلا تتم الإجابة الربانية – نحن نفتري القول- إلا تحت شرط أن يكون المضطر **قد دعاه**، وهذا المعنى واضح جلي في آية إجابة الدعاء التي قدمناها في مقالتنا السابقة، ولا ضير أن نعيدها هنا لتأكيد الفكرة نفسها:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾ [البقرة: 186]

فلقد حاولنا أن نوضح في المقالة السابقة أن ورود عبارة "إِذَا دَعَانِ" في هذه الآية الكريمة لا يمكن أنها جاءت من باب التكرار والحشو في الكلام، وإنما هي ضرورة لا يتم المعنى المراد بدونها، فحسب الآية الكريمة لا تكون الإجابة الربانية حاصلة إلا تحت شرط توجه السائل (ٱلدَّاعِ) إلى ربه بالدعاء (أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ)، إن عدم توجه العبد إلى ربه بالدعاء يعني أن رغبة الشخص لا تتجاوز أن تندرج تحت باب التمني. وليس أدل على صحة منطقنا هذا من قصة نبي الله يعقوب، ولكن كيف؟

نحن نفهم أن حزن نبي الله يعقوب على فقدان يوسف قد بلغ منه ما بلغ حتى فقد بسببه بصره:

- ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤﴾ [يوسف: 84]

لذا لا يمكن أن يتحدانا أحد بالقول أن يعقوب لم يكن يتمنى عودة يوسف، وهو الذي لم يفقد الأمل أصلاً بأن يوسف لم يمت ولا زال على قيد الحياة، وهو نفسه من طلب من أبناءه أن يذهبوا فيتحسسوا من يوسف:

- ﴿يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ٨٧﴾ [يوسف: 87]

ولكن هل سأل أحدنا سؤالا بسيطا مثل هذا: لِم لَم يرجع يوسف إلى حضن أبيه وهو الذي ما انفك يبكيه صباح مساء؟

رأينا: لأن يعقوب لم يدعو ربه أبداً أن يعيد له ولده المفقود. وما فعل ذلك إلا بعد أن فقد ولده الآخر عندما قال:

- ﴿قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٌۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٨٣﴾ [يوسف: 83]

فنحن نفهم أنه حتى لو كان يعقوب يتمنى عودة ابنه، فإن الله لم يتكفل له بتلك العودة ما دام أنه لم يترجم رغبته وأمنيته تلك إلى دعوة حقيقية. فالاستجابة الربانية مشروطة إذاً بدعاء العبد، فذاك هو حق الله على العبد:

- ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ٦٠﴾ [غافر: 60]

وقد يرد البعض بالقول: ولماذا لم يدعو نبي الله يعقوب ربه أن يعيد له ولده المفقود؟ ألم يكن يعرف كيف يدعو ربه؟ لم صبر كل هذه السنين على فراق ولده وربما كان يستطيع أن يستعيده بدعوة ربه؟

رأينا: هذا ما سنناقشه عند الحديث عن قصة يوسف بحول الله وتوفيق منه، لذا فالله أسأل أن يأذن لي بعلم من لدنه، إنه هو السميع المجيب.

---

**نتيجة: من لا يدعوا الله، عليه أن لا يتوقع الرد من خالقه.**

---

وفي هذا الإطار نقدم مثالين أخريين على صحة ما نزعم، ولكن يجدر الإشارة إلى أننا قد قدمنا هذين المثالين في مقالة سابقة تحت عنوان: مقالة في تفضيل الرسل بعضهم على بعض مع عدم التفريق بينهما.

أما المثال الأول فهو من سيرة نبي الله نوح عليه السلام ، بينما يأتي المثال الثاني من حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

## مثال نوح

**تساؤلات:** ألم يكن نوح راغباً في هداية ولده؟ ألم يجتهد في حث ابنه على الركوب معه والنجاة من الغرق؟ لم لم يحقق الله لنوح ما كان يريد إذاً؟

ربما يلحظ القارئ المتدبر للسياقات القرآنية لقصة نوح أمراً غايةً في الدقة والروعة في القرآن الكريم ملخصه أنّ نوحاً عليه السلام عندما عاد إلى الله في ابنه لم يعد إليه طالباً هداية ولده على صيغة دعاء، بل عاد إليه محاوراً متسائلاً، فالقراءة المتأنية للآية القرآنية تشير أنّ نوحاً لم يدعو الله أنْ ينجي له ابنه، بل سرد السبب الذي (حسب ظنه) يجب أنْ يتخلص ابنه من الغرق:

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ۝٤٥﴾ [هود: 45]

لذا فإننا نجزم أنه من باب الخطأ الظن أنّ ذلك دعاء من نوح لنجاة ابنه من الغرق، فالمدقق في الآية نفسها يجد أن الآية الكريمة لم تأتي على صيغة طلب الوالد بنجاة الولد، ولو أمعنا التفكير في الرد الإلهي على زعم نوح لتبيّن لنا أن نوحا لم يقدم الأمر على أنه طلب، فالله الذي يعلم خائنة الأنفس وما تخفي الصدور يرد بما يناسب الخطاب، أليس كذلك؟ لذا جاء الرد الإلهي على نحو أنّك مخطئ يا نوح في استنتاجك:

- ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٤٦﴾ [هود: 46]

فالله – لا شك- يرد على السؤال كما يجب أن يكون الرد، فلا يمكن أن يقبل الله رجاء نوح في ابنه إذا كان سؤال نوح نفسه لا يحمل معنى الرجاء (أو الطلب)، فالرد – لا شك- من جنس الطلب. ونحن نكاد نجزم هنا أنّه لو جاء طلب نوح على صيغة دعاء بأنّه لا حول له ولا قوة, وأنّ الله هو الذي يملك القدرة على هداية ابن نوح، وأنّ نوحاً يطلب ذلك من ربه مباشرة في صيغة دعاء كما فعل زكريا مثلاً، لكان الجواب الإلهي على ذلك إيجابياً, والقارئ مدعو ليعقد هنا مقارنة في هذا السياق بين نداء نوح ربه من جهة ونداء أيوب ويونس وزكريا من جهة أخرى:

**نداء نوح**

- ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي ... ۝٤٥﴾ [هود: 45]

**نداء أيوب وذا النون وزكريا:**

- ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۝٨٣﴾ [الأنبياء: 83]

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٧﴾ [الأنبياء: 87]
- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

ففي حين أن دعوة أيوب وذا النون وزكريا تبعتها الاستجابة الفورية:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء: 84]
- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُـۨجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٨٨﴾ [الأنبياء: 88]
- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

لم تحصل مثل هذه الاستجابة في حالة نوح عليه السلام، وخلاصة القول أنّ نوحاً لم يدع ربه في أمر نجاة ابنه من الغرق، ولكنه حآج ربه في نجاة ابنه، ولقد افترضنا أنّه لو توجه نوح إلى ربه بالدعاء لاستجاب الله طلبه. والدليل على ذلك أنّ نوحاً عندما توجّه إلى ربه بالدعاء لهلاك قومه، نجد أنّ الله قد استجاب دعاءه في الحال. وفي هذا السياق يسرد القرآن الكريم قصة دعاء نوح على قومه، فقد ذكر الأسباب الموجبة لهلاكهم، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ٧﴾ [نوح: 5-7]

ولكنّ نوحاً لم يتوقف عند ذلك، بل أردف هذه الحجج بالدعاء إلى الله بهلاكهم:

للتطرق لهذا الموضوع من جوانبه المختلفة ندعو القارئ الكريم إلى العودة إلى المقالة تلك: مقالة في تفضيل بعض الرسل مع عدم التفريق بينهم

- ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26]

**وقد يسأل البعض**: لماذا لم يدعو نوح ربه أن ينجي له ولده؟

**رأينا**: لأن نوح كان يشك أن ولده ليس ابنه الحقيقي، وإنما هو عمل غير صالح، فما كان راغباً حقاً بنجاته قبل أن يبين له أصله (للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان سفينة نوح ونظرية تكون القارات، وكم لبث نوح في قومه، وثلاثية المرأة، وغيرها).

## مثال إبراهيم:

تساؤلات: ألم يكن إبراهيم راغباً في هداية والده؟ لم لم يلبي الله سبحانه تلك الرغبة لنبيه؟ كم حاول إبراهيم أن يثني والده عن الكفر؟ هل نجح في ذلك؟ الجواب كلا، فلقد بقي والده على كفره، لا بل فلقد ناصب إبراهيمَ العداء إن هو لم يتركه وشأنه:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]

**السؤال**: لم إذاً لم تتحقق رغبة إبراهيم في هداية والده؟

**الجواب**: لأن تلك كانت فقط رغبة (أمنية) لم يترجمها إبراهيم إلى دعاء، ولكن كيف ذاك؟

نقول - بادئ ذي بدء - أنّ القرآن الكريم لا يذكر بأي موضع أنّ إبراهيم عليه السلام قد دعا لأبيه بالنجاة، بل جُلّ ما حصل هو أنّ إبراهيم قد وعد أبيه بالاستغفار له:

- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 46-47]

ولمّا حصل فعلاً أنّ توجه إبراهيم بالدعاء إلى الله طالباً الهداية، جاء طلبه على النحو التالي::

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: 35]

فإبراهيم إذاً لم يتوجه قط إلى الله تعالى بدعاء مفاده أن يترك والده عبادة الأصنام، وإنما خص نفسه وبنيه فقط بتلك الدعوة (وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ)، فالذين يظنون أنّ الله لم يتقبل دعاء إبراهيم لأبيه يقعون في الخطأ لأنّ إبراهيم لم يتوجه أصلاً إلى الله بالدعاء لأبيه بترك عبادة الأصنام. وهنا قد يرد البعض بالقول: ولكنّ إبراهيم قد طلب الاستغفار لأبيه، ألا يكفي ذلك لإجابة الدعاء؟ قال تعالى:

- ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: 86]

فنرد بالقول أن هذا السؤال المشروع ينقلنا إلى موضوع الحديث عن شروط قبول الدعاء الذي سنتعرض له لاحقاً، لذا سيتم إثارة هذا التساؤل مرة أخرى لنرى لِمَ لمْ تتم الاستجابة الربانية على طلب إبراهيم هذا بالرغم أنه جاء من قبيل الدعاء.

المهم بالموضوع هنا التأكيد على أن هناك فرقاً شاسعاً بين التمني والطلب (أو الدعاء)، فالله لم يتخذ سنة على نفسه بتحقيق أمنيات الناس ولكنه اتخذ سنة على نفسه في إجابة طلبات (أو دعاء العباد)، وهناك فرق كبير بين هذه وتلك.

ولو دققنا النظر في واقع حياة الناس لوجدنا أن كل الناس لديهم نفس الأمنيات تقريباً كالحصول على المال والجاه والمنصب والصحة، الخ. قال تعالى:

- ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت: 49]

ولكن هل تتحقق لكل الناس تلك الأمنيات على نحو ما يحبوا ويرغبوا، إن حصول الناس على تلك "الأمنيات" يقع ضمن نطاق نواميس الكون المرتبطة بالمسببات والنتائج، وهذه أمور يشترك بها البشر جميعاً، ويتنافسون في الحصول عليها ضمن سنن الله الكونية، فمن طلب المال، واجتهد في الحصول عليه، وسلك طريق الحصول عليه تحصل له المال، وهكذا.

ولكننا عندما نتحدث عن الدعاء فإننا نتحدث عن حصول الأمر على غير سنن الله الكونية التي يعرفها الناس ويتشاركون بها جميعاً. إن سؤالنا الذي نحاول الحصول على إجابة شافية له هو: هل يمكن أن يحصل شخص ما على المال بغير تلك الطرق المتعارف عليها بين الناس مثلاً؟ أو بكلمات أكثر دقة، هل يمكن الحصول على المال بالدعاء؟

جواب: نعم، ولكن ذلك يتطلب منك الدعاء، فالمطلوب ممن أراد ذلك هو أن ينقل تلك الرغبة من إطار الأمنيات إلى إطار الدعاء، فإن أنت توجهت إلى ربك طالباً المال على صيغة دعاء، فستحصل عليه بكل تأكيد، وهذا ينطبق على الصحة والمنصب وغيرها، ولكن كيف؟

أما بعد،

## ما هو الدعاء؟

أو بكلمات أخرى، ما هي الشروط الواجب توافرها في الطلب ليقع ضمن إطار الدعاء المستجاب؟ لا شك أن هناك شروطاً إن هي توافرت في صيغة الطلب الذي تتوجه به إلى الله الواحد الأحد، فإن ذلك الطلب سيكون مجاباً بلا تأخير ولا تبديل. فالله لن يؤخر لك أجره إلى يوم القيامة ولن يبدلك به شيئاً آخر لم تطلبه أنت.

### الشرط الأول: الدعاء يتطلب إيمان الربوبية فقط

إننا زعم الفهم أن الدعاء يقع ضمن إطار إيمان الربوبية فقط، فالمدقق في جميع صيغ الدعاء التي جاء الرد الرباني عليها بالإيجاب يجد أنها كانت تتضمن إيمان الداع بربوبية المدعو، ولندقق النظر في بعض تلك الأدعية مركزين على هذا الجانب:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: 38]
- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ...۝١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ۝٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ۝٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ۝٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠﴾ [طه: 25-30]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ۝٢٧﴾ [المؤمنون: 26-27]

فحتى دعاء إبليس بأن ينظره الله إلى يوم الوقت المعلوم جاء مقترناً بالاعتراف بربوبية المدعو:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۝٣٦﴾ [الحجر: 36]

ونحن ندعو القارئ الكريم إلى تفقد جميع صيغ الدعاء التي وردت في كتاب الله من هذا المنظور، ونتحدى أن يجد في أي منها داعياً يلجأ إلى ربه متسلحاً بغير سلاح الإيمان بربوبيته، لذا يخلو القرآن الكريم من أي دعاء فيه إقرار بإلوهية المدعو.

## الفرق بين إيمان الربوبية وإيمان الإلوهية فيما يخص الدعاء المستجاب

إن هذا التمييز الذي نقدمه هنا ربما يسلط الضوء على إشكالية كبيرة في الفكر الديني، وربما يقدم حلاً لسؤال خالج الكثيرين من أبناء المسلمين (العامة وأهل العلم منهم)، سؤالاً مفاده: لم لا يحقق الله دعاء المسلمين بالنصر على أعدائهم؟ ألم ندعو نحن المسلمين الله أن ينصرنا على اليهود مثلاً؟ ألم ندعو للمجاهدين بالنصر على الكفار؟ ولكن، ألا تتوالى الهزائم على هذه الأمة بالرغم من كثرة دعائنا؟ كيف يمكن أن نفسر كثرة دعائنا بالنصر على أعدائنا ولا نزداد إلا هزيمة وخذلانا؟ ألا تنفجر حناجر خطباء المسلمين على المنابر بالدعاء إلى الله أن يأخذ اليهود والنصارى أخذ عزيز مقتدر؟ ألم يدعوا عليهم بأن يرمل الله نساءهم وييتّم أطفالهم؟ ولكن، أين – يا ترى- تكثر الأرامل واليتامى، في العراق وأفغانستان وليبيا وسوريا، أم في السويد والدنمرك وسويسرا؟ ربي، ما الذي يجري؟

إننا نزعم أن الإيمان بأن الدعاء يتطلب إيماناً بربوبية المدعو تحل مثل هذه الإشكالية برمتها، ولكن كيف؟

أما بعد،

لا أود أن أدخل في تفاصيل العقيدة بالتمييز بين أنواع الإيمان (إيمان الربوبية والإلوهية والصفات)، ولكن سأقدم الموضوع بشيء من التبسيط الذي يناسب القارئ غير المتخصص وذلك لأن الأمر لا يهم أهل الاختصاص فقط، وإنما هو قضية تشغل فكر الجميع.

إن من بديهيات العقيدة التي نؤمن بها هو إن الإله هو رب البشر جميعاً (المؤمن منهم والكافر)، أليس كذلك؟ لذا فإننا نعتقد أنه ما دام أن الدعاء يتطلب إقراراً بربوبية المدعو فقط، فإن الإجابة الربانية تتحصل لكل من يؤمن بربوبية الإله. وبناءً عليه، فكما نؤمن نحن المسلمين بربوبية الخالق، يؤمن اليهود

بذلك، ويؤمن النصارى بذلك، ويؤمن كثير من الكفار بذلك. فنشترك نحن الخلق جميعاً (بغض النظر عن مسميات عقائدنا) في هذا النوع من الإيمان، لذا فكما يستجيب الله دعاءنا، يستجيب دعاءهم، وكما ندعو نحن ربنا أن ينصرنا، فهم بلا شك يدعو ربهم أن يحقق النصر لهم، وكما نتوقع أن يتقبل الله دعاءنا، يتقبل الله دعاءهم، فقبول الدعاء ليس حكراً على المسلم، وليس أدل على ذلك من دعاء إبليس، فلو كانت استجابة الدعاء مقتصرة على المسلمين، لما كان هناك تبرير لقبول الله دعاء إبليس، في الوقت الذي شهد الله بنفسه أن إبليس كان من الكافرين:

- ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: 34]
- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص: 74]

إن مراد القول هو أن فكرنا الديني الذي يمثله كتابنا الكريم (وليس عقول مشايخنا الأجلاء) يفرض علينا الإيمان بأن قبول الدعاء غير خاص بالمسلمين، وإنما هو حق البشر كافة على ربهم، فهو حق لكل من آمن بربوبية الإله. وبكلمات أخرى فهو حق المخلوق على الخالق، فمن غير المنطقي أن تقضي مشيئة الله أن يعمر هذا الكون المؤمن وغير المؤمن، ثم يكون قبول الدعاء خاصاً بالمؤمن، لأنّ ذلك يعني القضاء التام على غير المؤمنين، فلو كان الله لا يقبل الدعاء إلا من المؤمن لخلت الأرض على مدى التاريخ من كل عنصر غير مؤمن، ولكن لمّا قضت مشيئة الله أن تعمر هذه الأرض بالمؤمن والكافر:

- ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد: 31]

كانت سنة الله أن يتقبل الدعاء من غير المؤمن كما يتقبلها من المؤمن.

ولتبسيط الأمر فإننا نسرد المثال التالي (ولله المثل الأعلى)، فإن رب الأسرة لا يحرم من الميراث من كان عاقاً له من أبناءه (أرجو أن لا تقتبس هذه العبارة بمعزل عن النص، ليروج البعض- كما فعلوا أكثر من مرة- لفكرة تنصير أو تهويد أو تشييع أو تسنيين أو تكفير رشيد الجراح- وهو الذي لا يعترف بهم جميعاً لأن دينه مسلماً حنيفاً فقط)، فعاطفة الأبوة لديه أقوى بكثير من واجب الابن تجاه والده، فعند تقسيم تركته لا يجوز له أن يخص أكثر أولاده طاعة له بشيء من تركته يزيد على نصيب أكثرهم عقوقاً له، وبنفس المنطق، فالخلق جميعاً سواسية أمام الله في عمارة الأرض، لذا كان لزاماً أن يتشاركوا فيها بغض النظر عن عقيدتهم، ولكن التفضيل بينهم يكون في الدار الآخرة.

وربما يحل مثل هذا الطرح إشكالية الإجابة على سؤال كهذا: لم لا يستجيب الله دعاءنا بالنصر على أعدائنا؟ لِمَ تتوالى الهزائم على هذه الأمة بالرغم من كثرة دعائها؟

**جواب**: لأننا كما ندعو نحن ربنا أن ينصرنا، يدعوا هم كذلك ربهم بأن ينصرهم، فتتساو الفرص بيننا وبينهم، فتكون الغلبة ليس للدعاء وإنما لمن يملك القوة ورباط الخيل. ولو كان نصر الفئة المؤمنة على

الفئة غير المؤمنة يتم بالدعاء، لما كان هناك مبرراً أن يطلب منا ربنا أن نعد لهم ما استطعنا من قوة ومن رباط الخيل:

- ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمۡ لَا تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال: 60]

فمن ظن أن دعاء النبي كان سبباً في نصر المسلمين في بدر مثلاً، فعليه أن يبيّن لنا ويفهمنا أين إذاً ذهب دعاؤه في أحد. من يدري!!!

## متى يكون الدعاء مفيداً في المواجهة من الأعداء؟

لا شك يكون ذلك مفيداً فعلاً إن كان الأعداء لا يملكون إيمان الربوبية، ولا يتوجهوا لربهم بالنصر، عندها نكون نحن نمتلك سلاحاً لا يمتلكوه هم، ولكن إذا توجهوا هم إلى ربهم كما نفعل نحن لتساوينا جميعاً في هذا السلاح، ولفقد تأثيره وأهميته، فالله لا شك يجيب دعوة المضطر، وليس بالضرورة أن يكون هذا المضطر مؤمناً أو مشركاً بالله أو حتى كافراً بربه، المهم بالموضوع هو أن يكون موقناً أن له رباً، وأن هذا الرب قادر على إجابة دعوته بغض النظر عن الطريقة التي يعبد فيها ربه، فالمسلم له منهج وشرعة تختلف عن منهاج وشرعة اليهودي أو النصراني أو البوذي أو المشرك، ولكنهم يتساوون جميعاً في إيمان الربوبية، فيستحقوا أن يجيب الله دعاءهم جميعاً.

والملفت للانتباه في سياقات الدعاء في القرآن الكريم هو خلو الدعاء من ذكر اسم الله، فلا نجد أحداً يتوجه إلى الله بصيغة دعاء مثل: يا الله هب لي، أو يا الله لا تذر على الأرض... الخ، ولا نجد أن الدعاء مرتبطا بصفات الله وأسماءه الحسنى، فلا نجد دعاءً على نحو: يا رحمن هب لي... أو يا منتقم لا تذر على الأرض...، وهكذا. لذا جاءت مثل هذه الصيغ في القرآن في مجمل الحديث عن الدعاء على أنها غير مهمة بحد ذاتها، قال تعالى:

- ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ١١٠﴾ [الإسراء: 110]

ولكننا نجد ارتباطاً لا تكاد تفك عراه بين الدعاء وربوبية المدعو على نحو "قال رب... ". ولو أمعنا التفكير في هذا الموضوع وتساءلنا: هل يختلف رب نوح عن رب إبراهيم أو رب زكريا أو رب يونس أو حتى رب إبليس؟

الجواب كلا، فهو الإله الواحد الأحد، ولكن بالرغم من ذلك، لم يستخدم أي منهم اسم ربه الأعلى في الدعاء ولا صفاته، وتوجه كل منهم إلى ربه بصيغة المفرد، فيونس يقول "رب..." ، وإبراهيم يقول "رب ..."، وزكريا يقول "رب..."، وامرأة عمران تقول "رب..."، وقال إبليس من قبل "رب..."، وهكذا.

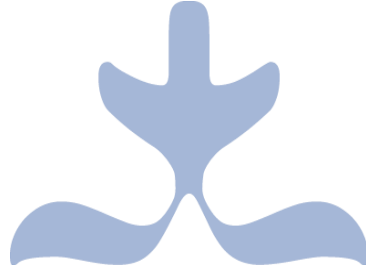
وعندما أخطأ آدم وزوجه وأكلا من الشجرة رجعا إلى ربهم ليطلبوا منه قبول التوبة بصيغة المثنى:

- ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23]

**خطبة قصيرة**: عزيزي المسلم، ليكن كتابك هو هاديك، ولتكن سير أنبياء الله هي واسطتك، لذا عندما تتوجه إلى ربك بالدعاء فليس من الضرورة بمكان أن تتوجه إليه بصفته الإله الواحد الأحد، وليس بالضرورة أن تستخدم اسماً محددا من أسماءه الحسنى، ولا حتى بصفته رباً لكل الخلق، ولكن توجه إليه كما توجه إليه عباده جميعاً بصفته رباً لك وحدك (كما هو رب غيرك)، لذا يجب أن تكون صيغة الدعاء المقبول مبنيّة على الاعتقاد الجازم بأنك تتوجه إلى ربك على النحو التالي:

رب ................................

وللحديث بقية



# صلاة الإستسقاء

# الجزء الرابع



# صلاة الاستسقاء – الجزء الرابع

لقد حاولنا في مقالتنا السابقة التفريق بين الدعاء (كطلب يستوجب الإجابة الربانية التي قطعها الإله على نفسه)من جهة والتمني (كرغبة لا تستوجب مثل تلك الاستجابة) من جهة أخرى، وحاولنا بيان أنّ مثل الطلب التالي الذي جال في خاطر نفر من بني إسرائيل لا يندرج تحت باب الدعاء:

- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القصص: 79]

فهم إذاً لا يدعوا الله أن يؤتيهم مثل ما أوتى قارون وإنما كانوا يتمنون ذلك، فما كان لهم ما تمنوا.

ولو دقّقنا النظر في السياقات القرآنية التي وردت فيها صيغ التمني لربما وجدنا أنّ الصبغة الغالبة على التمني هي النبش في أحداث قد سلفت وأصبحت جزءاً من الماضي، ولنسرد هذه السياقات ونتفحصها من هذا المنظور:

- ﴿وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٧٣﴾ [النساء: 73]
- ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيۡتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٧﴾ [الأنعام: 27]
- ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾ [الكهف: 42]
- ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم: 23]
- ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧﴾ [الفرقان: 27]
- ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ٧٩﴾ [القصص: 79]
- ﴿يَوۡمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمۡ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيۡتَنَآ أَطَعۡنَا ٱللَّهَ وَأَطَعۡنَا ٱلرَّسُولَا۠ ٦٦﴾ [الأحزاب: 66]
- ﴿قِيلَ ٱدۡخُلِ ٱلۡجَنَّةَۖ قَالَ يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ [يس: 26]
- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ ٣٨﴾ [الزخرف: 38]
- ﴿وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ٢٥ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ٢٦ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ٢٧﴾ [الحاقة: 25-27]
- ﴿إِنَّآ أَنذَرۡنَٰكُمۡ عَذَابٗا قَرِيبٗا يَوۡمَ يَنظُرُ ٱلۡمَرۡءُ مَا قَدَّمَتۡ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلۡكَافِرُ يَٰلَيۡتَنِي كُنتُ تُرَٰبَۢا ٤٠﴾ [النبأ: 40]

- ﴿وَجِاْيٓءَ يَوۡمَئِذِۭ بِجَهَنَّمَۚ يَوۡمَئِذٖ يَتَذَكَّرُ ٱلۡإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكۡرَىٰ ٢٣ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي قَدَّمۡتُ لِحَيَاتِي ٢٤﴾ [الفجر: 24-23]

**افتراء من عند أنفسنا:** لو أمعنا التفكير في جميع هذه المواقف لوجدنا أن الأمر متعلق بما كان قد حصل وانتهى، ولكن لمّا كان الدعاء أمراً يخص ما سيحصل، كان لزاماً طلب الشيء على نحو ما سيكون وليس على غير نحو ما كان، فحتى عندما تمنى نفر من بني إسرائيل مثل ما عند قارون لم يطلبوه على نحو أنه سيكون مستقبلاً، وإنما كان الطلب على نحو حصولهم عليه من ذي قبل. فأنت إن ذهبت في رحلة وتبيّن لك بعد ذلك أنّ تلك الرحلة لم تجلب لك الخير فلا تطلب من الله لو أنك لم تذهب فيها، وتتوقع من الله الاستجابة لمثل هذا الطلب، فالحياة لا تعود إلى الوراء. لذا فإن كانت رغبتك تتعلق بتغير ما كان فذاك أمر يقع في باب التمني، وأظن أن عقيدتنا تتمثل في أن الله لا يغيّر ما كان قد حصل وانتهى، ولكن الله تكفل بتغير ما سيحصل.

ولو دققنا النظر في قصة نوح مع ابنه (التي قدمناها سابقا) من هذا المنظور لوجدنا أن نوحاً توجه إلى الله في شأن ولده بعد انقضاء الأمر برمته، أي بعد أن حصل الطوفان واستوت السفينة على الجودي، وقضي الأمر، جاء نداء نوح ربه بشأن ابنه:

- ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٤ وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٤٥﴾ [هود: 45-44]

لاحظ - عزيزي القارئ- كيف كان النداء بعد أن قضي الأمر كله، وأصبح ذاك جزءاً من الماضي، لذا فحتى لو ظننا أن ذاك طلب من نوح موجّه إلى ربه (وهو ليس كذلك على ما نظن كما بيّنا سابقاً)، فإن الأمر يقع في باب التمني وليس في باب الدعاء، لأنه يخص ما كان وليس ما سيكون.

وبكلمات بسيطة جداً فإننا نقول أنك إذا مرضت فلا تتمنى على ربك لو أنك لم تمرض (لأنّ الأمر قد حصل وانتهي فيكون ذلك تمنياً)، ولكن اطلب من ربك أن يشفيك. فلم يتمنى أيوب على ربه لو أنه لم يمرض، ولم يطلب زكريا من ربه لو أنه تحصل على الولد من ذي قبل ولم يتمنى لو زوجته لم تكن عاقرا، ولم يطلب يونس من ربه لو أنه لم يدخل في فم الحوت، وإنما جاء طلبهم متعلقاً بما سيحصل لاحقاً.

**افتراء من عند أنفسنا**: نحن نظن أن قبول الأمر كواقع حال على الشاكلة التي هو عليها أمر مهم في تحقيق الطلب بما سيكون عليه الأمر لاحقاً، فقبولك الفقر كأمر قد تم وحصل ضرورة في طلبك الغنى بعده، وتقبلك المرض كحالة قد وقعت ضرورة في طلبك الشفاء منه لاحقاً، وهكذا. ولو أمعنا النظر في بعض سياقات الدعاء القرآنية لوجدنا أن الداع يقر بحقيقة الأمر لينتقل بعدها إلى طلب ما ستكون عليه الحال بعد هذا الواقع، فها هو زكريا يدعو ربه قائلاً:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم: 4-6]

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى حقيقة جلية تتمثل في قبول زكريا بواقع الحال وإقراره بأن ذاك قد تم وانتهى، وهو لا يتمنى على الله لو كان الأمر على غير تلك الشاكلة، وإنما يقرّ بما حصل على أنه حقيقة انتهى أمرها، فيلجأ إلى الله أن يغيّر ما ستكون عليه الحال بعد هذا الوضع القائم.

إننا نظن أن عدم إقرار الداع بواقع الحال وتمنيّه على الله الأماني هو واحد من أسباب رد الدعاء، لذا عزيزي الداع، ابدأ دعاءك بإقرارك بربوبية المدعو على نحو:

رب...............

ثم انتقل إلى شرح واقع الحال على أنك مقر به كما تم وانقضى، كما فعل زكريا:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا ...۝٥﴾ [مريم: 4-5]

فزكريا يقر بالأمور التالية كواقع حال:

1. أنه وهن العظم منه
2. واشتعل رأسه شيبا
3. ولم يكن بدعاء ربه شقيا
4. وأنه خاف الموالي من ورائه
5. وكانت امرأته عاقرا

لينتقل بعدها إلى طلب ما يريد أن تصير إليه الأمور:

- فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا

وهنا نتوقف مع سؤال غريب لا بد من طرحه قبل الانتقال إلى شرط آخر من شروط الدعاء، سؤال يثيره إقرار زكريا بواقع حاله، فنحن لا نحتاج إلى برهان لنصدّق أن العظم قد وهن من زكريا أو أن رأسه قد اشتعل شيبا، فتلك أمور لا تخفى على أحد ما دام أن العمر قد تقدم بالرجل، ونحن لا نشك أن الرجل لم يكن بدعاء ربه شقيا أو أنه قد خاف الموالي من وراءه، فذاك ما يحس به الرجل في جوفه، فهو يعبر عن ما ظهر من إشارات على ملمحه الخارجي وعن ما يجول في خاطره من شعور، ولكن يبقى السؤال الغريب على النحو التالي: كيف بزكريا يجزم أن زوجته كانت عاقرا؟ لم لا يكن الخلل في زكريا نفسه؟ لم لم يكن العقم

من زكريا وليس من زوجته؟ هل فعلا كان عند زكريا مختبراً يقدم فحصاً سريريا يبين من خلاله أين يكمن مصدر العقم: في الزوج أم في الزوجة؟ وقد يرد البعض بالقول: ما علاقة هذا الأمر بموضوع الدعاء؟

**فنقول**: نحن نظن أنه لو كان العقم من زكريا نفسه (ولم يكن من زوجته) وقدم زكريا مثل تلك الحجة المغلوطة لما تمت الاستجابة الربانية الايجابية لدعائه، لأن ذلك ربما يدل على أن زكريا لا يتقبل الواقع كما هو، فحتى تتم الاستجابة لابد من سرد الأمر على نحو ما حصل فعلاً دون تبديل ولا تغيير. ولنقدم المثال التالي لتوضيح الصورة، فهناك من يدعو الله أن يرزقه لأنه فقير قائلاً:

**رب إني فقير فارزقني**

فقد لا تتم الاستجابة الربانية لمثل هذا الدعاء في بعض الحالات بينما تتم الاستجابة في حالات أخرى، ولكن لماذا؟

إننا نظن أن السبب يكمن في أن الذي لم تتم الاستجابة الربانية لدعائه قد قدّم المعلومة مغلوطة عن واقع حاله، فالله لا يستجيب دعاءً لا يصف واقع الحال كما هو، ولا يبين أن الداع قد أقر بالواقع كما هو حاصل فعلاً، وبكلمات أكثر دقة نقول، هل فعلاً كنت أنت فقير عندما وصفت نفسك بهذه الصفة؟ فحتى الأغنياء ربما يظنون أنهم فقراء فيطلبوا الزيادة من ربهم، نقول نعم هذا صحيح، ولكن يجب أن تميّز بين أن تكون غنياً وتطلب من ربك الاستزادة أو أن تكون فقيراً فتطلب من ربك الغني، فإن لم تكن فقيراً وطلبت من الله الغنى على نحو:

**رب إني فقير فارزقني**

لما تمت الاستجابة الربانية لك، ولكن لماذا؟

**الجواب**: لأنه لا بد من مخاطبة الرب بصدق الحال، فلو عدنا إلى كتاب الله وبحثنا فيه عن معنى الفقير لوجدنا الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٦٠﴾ [التوبة: 60]

فحتى تكون فقيراً (بالمعنى المادي) فيجب أن تكون ممن تصرف لهم الصدقات، لذا فعندما تتوجه إلى ربك بالقول أنك فقير (فقراً مادياً كما تبينه الآية السابقة) طالباً الغنى وأنت في واقع الحال لست فقيراً لأنك لست ممن تصرف لهم الصدقة، فذاك ربما يكون سببا في عدم قبول الدعاء، لذا يجب التميز بين دعاء من هو فعلاً فقير ممن تصرف له الصدقة فيتوجه إلى ربه بالقول:

**رب إني فقير فارزقني**

ومن هو ليس فقير وعنده ما عنده من المال ولكنه يطلب الزيادة، فيقول

**رب عندي ........ من المال فزدني**

**مثال**

ولنقدم المثال التالي لتوضيح الصورة (ولله المثل الأعلى): تخيل لو أن طالباً جاءك يطلب مسألة وشرح لك حالته، ولكنّه تحايل في تقديم حجته، فأوهمك بأنه فقير وليس عنده ما يكفيه، ثم اكتشفت بعد ذلك أنه ليس كذلك، فهل كنت ستلبي له طلبه؟ ولكن تخيل لو أنه صدقك القول في شرح وضعه وطلب منك شيئاً لحاجة أخرى، فهل كنت سترد طلبه؟ فكيف بالله الذي يعلم السر وأخفى؟ كيف بك تقدم حجتك لله على أنك فقير وأنت فعلاً لست فقيرا؟ ألا تعلم أن الله هو أعلم بحالك من نفسك؟ لم إذاً لا تصدق الله القول، وتطلب ما أنت طالب دون تحايل؟ فإن كنت فعلاً فقيراً، فقدّم فقرك كحجة لك وإلاّ فلا، وإن كنت غنياً، فقدم حجتك على أنك غني تطلب الزيادة وهكذا.

وبهذا المنطق، كيف نفهم أن زكريا قدّم حجته على أن زوجته هي فعلاً العاقر فتقبل الله منه تلك الحجة؟

**الجواب**: لأن زوجته كانت فعلاً هي العاقر؟

**إذاً يبقى السؤال قائماً**: كيف علم زكريا أن زوجته هي سبب العقم؟ لابد إذاً من طريقة تبين لزكريا أن العقم يكمن في زوجته وليس فيه شخصياً، فهل جرّب زكريا ذلك مع نساء أخريات؟ هل كان زكريا متزوجا من أخريات؟ فلو حصل ذلك وكان العقم في زوجته وليس فيه لتحصلت له الذرية من تلك النساء ولما كان أصلاً بحاجة أن يطلب ذلك من ربه؟ أليس كذلك؟

**وقد يرد البعض بالقول**: إن عادة المجتمعات القديمة أن تنسب العقم للمرأة وليس للرجل؟ فنقول هذا جواب جيد لو لم تكن شريعة تعدد الزوجات قائمة، ففي المجتمعات القديمة كانت حقيقة تعدد الزوجات قائمة مطبّقة على أرض الواقع، لذا لا يمكن أن يخدع الناس جميعاً بهذه الحجة، فلو كان العقم في الرجل وعدّد زوجاته لبان الأمر بكل يسر و سهوله، فإن لم ينجب من واحدة لن ينجب من الأخرى، وهكذا. لذا لابد أن المجتمعات البشرية كانت تعرف أن احتمالية أن يكون العقم في الرجل هي احتمالية قائمة. فهذا سيناريو لا يمكن أن يغفل عنه نبي الله، ولا يمكن أن يتهم زوجته بما ليس فيها.

**وقد يرد آخر بالقول**: ربما أن زكريا يقول ذلك لأن زوجته قد تقدم بها العمر لذا فهي عاقر، نقول هذا كلام أكثر وجاهة ولكنّه يعاني من وجود دليل ضده في كتاب الله، فالمدقق في النص القرآني يجد أن زكريا لم يقل أن زوجته عاقر فقط:

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]

وإنما جاء قول الحق على لسان زكريا بالقول أيضاً:

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم: 5]

فالمدقق باللفظ يجد أن زكريا لا يتحدث عن حال زوجته الآن بعد أن بلغت من الكبر ما بلغت فقط كما في الآية 40 من آل عمران، وإنما يتحدث عن ماضيها بدليل " وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا "، كما في الآية 5 من مريم فهو إذاً يسرد تاريخها الماضي، وبكلمات أكثر دقة نقول: وبكأن زكريا يقول لقد كانت زوجتي حتى قبل هذا الوقت عاقراً.

وهنا نواجه سؤالاً آخر لا مفر منه وهو: ما دام أن زكريا كان يعرف أنّ العقم يكمن في زوجته وليس فيه شخصياً، فلم إذاً لم يتزوج بغيرها فينجب منها ما دام أنها هي (وليس هو) سبب العقم؟

فهل فعلا تزوج زكريا بأخريات؟ الجواب كلا، وذلك لأن زكريا لم يتحدث إلاّ عن زوجة واحدة:

- ﴿... وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا ... ٥﴾ [مريم: 5]

وجاء قول الحق مؤكداً ذلك:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

ولكن هل كان لزكريا جواري وأنجبن منه ولكنه لم ينجب من زوجته؟ كلا، لأنّ زكريا قد قال بملْ فيه أنه كان يخاف الموالي من وراءه، ونحن نفهم من صريح اللفظ القرآني أنّ الموالي ليسوا بكل تأكيد من ذرية الرجل، قال تعالى:

- ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ٥﴾ [الأحزاب: 5]

فمن لم تعرف من هو أبيه يكون أخوك في الدين أو مولاك، فلا يمكن أن يكون الموالي من ذرية زكريا، وإنما هم ممن كان يتخذهم زكريا في رعايته وممن لا يعرف من هم آباؤهم. فلقد عرف عن زكريا كفالة الأيتام، وليس أدل على ذلك من كفالته لمريم بنت عمران:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: 37]

إذاً كيف عرف زكريا أن امرأته كانت هي سبب العقم؟ (سنتعرض لهذا الموضوع بحول الله في مقالة منفصلة عن حياة الأنبياء الخاصة مع زوجاتهم)

أما ما يهمنا هنا هو الإقرار بأن الداع يدعو ربه بصدق واقع الحال، وهذا شرط من شروط استجابة الدعاء. لننتقل بعده إلى شرط آخر من شروط استجابة الدعاء كما يبين لنا من الداع الذي تمت الاستجابة الربانية عليه.

## أن يكون الدعاء خاصاً بك

إن الدعاء هو علاقة فريدة بينك وبين ربك، فلا ينوب في ذلك أحد عن أحد، فهل يستجيب الله دعائي إن دعوت نيابة عن فلان؟ فهل لو قلت رب ارزق فلاناً، هل أتوقع الاستجابة الربانية لدعائي هذا؟ الجواب كلا.

لو تفقدنا جميع الأدعية التي تمت الإجابة الربانية لها لوجدنا أن الدعاء كان يخص الداع مباشرة، فزكريا يطلب الذرية لنفسه، ويونس يتحدث عن البلاء الذي هو واقع فيه، وأيوب يتحدث عن محنته، وهكذا، وعندما توجه موسى بالدعاء لأخيه لم يكن ذلك بسبب أخيه، وإنما ربط ذلك بما يعود عليه هو من مردود، فلم يأتي طلب موسى ربه على النحو التالي:

**واجعل هارون أخي وزيراً**

وإنما جاء طلبه على النحو التالي:

- ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 29-32]

فموسى لم يكن همّه الأول هو ما سيتحصل لأخيه من خير (وإن كان كذلك)، وإنما كان غرضه من الطلب هو ما سينتج عن ذلك من فائدة بالنسبة له، لذا جاء طلبه على نحو: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي، وبيّن الفوائد التي تخصه هو شخصياً من هذا الطلب " ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي " و " وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ".

وكذلك كان الحال بالنسبة لامرأة عمران:

- ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾ [آل عمران: 35]

فامرأت عمران لم تدعو لتخص ما في بطنها بالخير على وجه التحديد، وإنما كان جل ما طلبت هو أن يتقبل الله منها ما نذرت، بغض النظر عن ما في بطنها، لذا جاءت الروعة في اللفظ القرآني على نحو (فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ) ولم تقل "فتقبلها" مثلاً، لأن الذي يعنيها هو أمر نفسها قبل أن يكون أمر ما في بطنها، وهذا المنطق يتماشى مع سنّة الله الكونية في أنّ الولد لا يجز عن والده ولا المولود هو جاز عن والده شيئاً. صحيح أنه ربما يتحصل الخير لغيرك بسبب دعاءك، ولكن حتى يكون دعاؤك مجاباً عند ربك فيجب أن يكون في أمر يخصك أنت نفسك.

ولو عقدنا مقارنة بين طلب موسى وطلب إبراهيم بالغفران لتمثلت لنا هذه المعاني في أحسن صورها، فها هو موسى يقتل الرجل فيعترف بذنبه على الفور ويعود إلى ربه طالباً المغفرة:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 16]

فكانت النتيجة على نحو ما أراد وطلب (فَغَفَرَ لَهُۥٓ)، وبالمقابل فها هو إبراهيم يتوجه إلى ربه طالباً المغفرة لأبيه من الشرك الذي هو (أي أبيه) واقع فيه:

- ﴿وَٱغۡفِرۡ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ٨٦﴾ [الشعراء: 86]

فلم تتحصل الاستجابة الربانية لطلبه. ونحن نظن أن احد الفروق يتمثل في حين أن موسى كان يدعو لنفسه بالمغفرة، كان إبراهيم يقوم بالدعاء نيابة عن أبيه، ولما كانت سنّة الله تقتضي أن المولد لا يجز عن والده شيئاً، كان لزاماً أن يقوم الأب نفسه بالدعاء لتتحصل الإجابة الربانية له، وفي هذا عدل مطلق للبشرية جميعاً، فلو كان الله يتقبل دعاء الناس بعضهم نيابة عن بعض لنجوا جميعاً، الصالح منهم والطالح، فحتى إبراهيم قد دعا لوالده، فما الذي يمنع أن يدعو كل إنسان لغيره؟ ولو حصل ذلك، لنجا المشركون بذنوبهم ولفلتوا من العقاب بدعاء ممن حولهم من المؤمنين، ولكن قضت سنّت الله لتكون على النحو التالي:

- ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ١١٣ وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة: 113-114]

وها نحن نقدم للقارئ أمثلة على الدعاء الذي تمت إجابته على الفور ليصار إلى تمحيصها من هذا المنظور:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحۡيَىٰ مُصَدِّقَۢا بِكَلِمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٣٩﴾ [آل عمران: 38-39]
- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾ [آل عمران: 40-41]
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلۡعَظۡمُ مِنِّي وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا وَلَمۡ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيّٗا ٤ وَإِنِّي خِفۡتُ ٱلۡمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا فَهَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا ٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ وَٱجۡعَلۡهُ رَبِّ رَضِيّٗا ٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسۡمُهُۥ يَحۡيَىٰ لَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ مِن قَبۡلُ سَمِيّٗا ٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا وَقَدۡ بَلَغۡتُ مِنَ ٱلۡكِبَرِ عِتِيّٗا ٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞ

وَقَدۡ خَلَقۡتُكَ مِن قَبۡلُ وَلَمۡ تَكُ شَيۡـٔٗا ٩ قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ
لَيَالٖ سَوِيّٗا ١٠﴾ [مريم: 4-10]

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ
ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ
تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ٢٥ وَيَسِّرۡ لِيٓ أَمۡرِي ٢٦ وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨ وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ
أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا
بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ ٣٦﴾ [طه: 25-36]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٢٦ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ
فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ
٢٧﴾ [المؤمنون: 26-27]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ٤٠ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ
فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾ [المؤمنون: 39-41]
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ
ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠﴾ [الشعراء: 117-120]
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 16]
- ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي
سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ
قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 21-23]
- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى
ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ
نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾
[القصص: 24-26]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ
ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا
ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا

تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [العنكبوت: 30-34]

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾﴾ [ص: 35-40]
- ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: 41-44]

نخلص إلى القول أنه لابد للداع أن يربط الدعاء بما سيعود عليه نفسه من خير، فالابن لا ينوب عن والده ولا الوالد ينوب عن ولده، ولنعقد مقارنه بين ما طلب إبراهيم بخصوص والده وكيف جاء طلبه فيما يخص أبناءه

**إبراهيم يطلب لوالده:**

- ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِىٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الشعراء: 86]

فلم تتم الاستجابة الربانية لهذا الطلب

**إبراهيم يطلب لـ أبناءه**

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ [إبراهيم: 35]

فكانت الاستجابة حاصلة، لاحظ – عزيزي القارئ- كيف نأى إبراهيم بنفسه عن طلب المغفرة لوالده بينما شمل نفسه في موضوع هداية أبناءه.

## أن يكون الهدف من الدعاء هو تحقق الدعاء

غالباً ما سوّق لنا منظرو الفكر الديني أن عدم الاستجابة الربانية لدعاء العبد ربما يقع في باب الخير للعبد نفسه، فهم يعتقدون أن الإله يعلم أحوال العبد أكثر من العبد نفسه، وبالتالي ربما يكون من مصلحة العبد أن لا يحقق الله له ما طلب، وغالباً ما تحايل الناس على أنفسهم بمثل هذه الحجج الواهية، فعندما يدعو العبد ربه طالباً شيئاً ولا يتحقق له ذاك الشيء، يعود العبد ليطمئن نفسه بالقول أن في عدم تحقق

الدعاء خيراً له، وكثيراً ما سمعنا مثل هذا الهراء (كما نزعم) من العامة وأهل الاختصاص على حد سواء، في حين أنهم أنفسهم لا زالوا يتمنون لو يتحقق لهم ما أرادوا.

إننا نعتقد أن مثل هذا الاعتقاد أو السلوك هو من أسباب عدم تحقق الدعاء، لأننا نؤمن أنّ الأمر هو على النحو التالي: إذا كان الله لا يحقق لي ما أطلب لأن تحقيق الأمر ربما لا يعود بالخير عليّ، فلم يطلب الله مني أن أدعوه أصلاً؟ وإذا كان الله يرأف بالناس لهذه الدرجة، فلم لا يحقق لهم الخير في كل شيء دون الحاجة أن يدعوه؟ والأهم من ذلك هو: لم يطلب الله مني أن أدعوه أصلاً ما دام أنه لن يحقق لي إلا ما فيه خير لي؟ إذاً ليحقق الله لي الخير ولا يطلب مني أن أدعوه.

ثم -يا سادة- أين عدم الخير في طلب الخير؟ هل في طلبي الرزق أو الصحة أو المنصب أو أي رغبة في نفسي شيء من السوء؟ فسيرد البعض بالقول "ربما"، فقد تطلب من الله المال فلا يعطيك الله ذلك المال لأنك ربما تقع في المحارم بسبب المال، أو لربما تشتري بالمال سيارة فتتسبب في حادث فيقضي عليك. أليس هذا ما يسوّقه بعض مشايخنا الأجلاء؟

ولكن ألا ترى – عزيزي القارئ- حجم المهزلة في مثل هذا الكلام؟ هل عدم شرائي للسيارة يكف عني الموت إن كان مكتوباً علي؟ ثم لم لا أطلب من الله المال فيعطيني إياه، ثم إذا ما اشتريت سيارة دعوت الله من جديد أن يحفظني وسيارتي؟ هل هذا شيء يصعب القيام به؟!!!

والأهم من ذلك، ما المانع أن أطلب من الله شي فيعطيني إياه حتى لو كان ذلك سيسبب لي الشر، أليس هذا ما أريد؟ ثم للنظر مرة أخرى إلى طلب إبليس الأول:

- ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝٧٩ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝٨٠ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ۝٨١﴾ [ص: 79-81]

دقق – عزيزي القارئ- في طلب إبليس هذا جيداً، ما الذي كان يريده إبليس من هذا الطلب؟ هل في الإجابة الربانية لطلب إبليس خير للطالب (إبليس)؟ ألا يعلم الله أن إبليس سيستغل الكرم الرباني في الشر؟

- ﴿قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ۝١٥ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف: 14-17]

أليس هذا هو الشر بعينه؟ لم يسمح الله بذلك ما دام أنه يريد الخير لخلقه؟ سترد عليّ بالقول ولكن هذا إبليس، وهو من أراد الشر. فأرد عليك بالقول: لم إذاً لا يلبي الله طلب من يدعوه حتى لو كان ما أراد شراً؟ أليس هذا ما اختاره الإنسان بنفسه؟ إنني أنوي القول أن الإنسان يطلب من الله (أي يدعوه) بما يحب ويرغب، والله طلب من الناس أن يدعوه ليجيب دعائهم، لذا يجب أن يفهم الداع أن من حق الله عليه أن يدعوه، ومن حقه على ربه أن يجيب دعاءه بغض النظر عن العواقب التي ستؤول إليها الأمور.

إن موقفنا هذا مستمد من سياقات قرآنية عديدة قام فيها بعض الخلق بدعاء ربهم أن يعطيهم ما يريدون، ولكنهم بعد أن حصلوا على ما أرادوا انقلبوا على أعقابهم، وتبين أن ذلك لم يكن خيراً لهم، وسنقدم بعض تلك السياقات لتمحيصها من هذا المنظور:

فها هم بنو إسرائيل يطلبوا من نبيهم موسى أن يدعوا لهم ربه ليكف عنهم الأذى

- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ١٣٤ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ١٣٥ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: 134-136]

ولكن، ما الذي حصل بعد أن كشف الله عنهم الأذى؟ ألم ينقلبوا على أعقابهم؟ إذاً، فالسؤال المشروع الذي نطرحه هنا هو: هل كان في كشف الرجز عنهم خيراً لهم؟ كلا، وألف كلا، لا بل فقد كان ذلك سبباً في وقوع الانتقام الرباني منهم، فأين الخير إذاً في إجابة طلبهم؟

ويتكرر المشهد على المستوى الفردي في الآيات التالية:

- ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 189-190]

فهل جلبت لهم الإجابة الربانية لدعائهم الخير؟

وكم من الناس انطبقت عليهم الآيات الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٧٥ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ٧٦ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ٧٧ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ٧٨﴾ [التوبة: 75-78]

فهل كان في تقبل دعائهم، وإسباغ النعم عليهم خيراً لهم؟ فلو كان الله لا يتقبل الدعاء إذا كانت العاقبة ستكون وخيمة – كما يظن الكثيرون- لكان الأجدر أن لا يجيب الله دعاء مثل هؤلاء، لأن الإجابة الربانية لدعائهم لم تجلب لهم الخير إطلاقاً، فلو غرق من ركب البحر على الإيمان الذي كان في قلبه في تلك اللحظة لكان خيراً له من النجاة التي دعا الله إياه وكانت عاقبتها البغي في الأرض بغير الحق.

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ

مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [يونس: 22-23]

إذاً لنكف عن تسويق ما يتعارض مع النصوص الصريحة في كتاب الله، ولنكف عن تفسير الغيبيات بالغيبيات، ولنكف عن إفحام الناس في تقديم أجوبة غيبية لا يمكن التحقق منها، فتكون كالطعام الذي لا يسمن ولا يغني من جوع، إن الناس جياع للحقيقة، وعلم الله لا شك هو الحق بعينه، فلنقدم لهم كتاب الله كما هو، ولا نتكفل التعذر عن ما لا نستطيع فهمه.

وفي هذا السياق فإننا نقول إنّ أبسط الحقائق التي يجب الوقوف عندها هو أن الله طلب منا أن ندعوه، وتعهد على نفسه أن يجيب دعاءنا بغض النظر عن النتيجة التي ستؤول إليها الأمور جراء تلك الاستجابة الربانية، وإن لم تتم الاستجابة الربانية لدعائك فلا تتعلل بما هو ليس من الحق في شيء، بل يجب أن تقف عند الحقيقة وكفى، فقل إني دعوت الله ولم يستجيب دعائي، وكفى. فنحن نظن أن التعلل بهذه الحجج الواهية هو سبب من أسباب عدم الاستجابة الربانية لدعائك، فعلى الداع أن يدعو الله ولا يقبل بأقل مما طلب، فليس المدعو بالبخيل ولا هو بغير القادر على الإجابة، ولا ينقص ذلك من ملكه شيئاً، لذا يجب أن يتمتع الداع بالشجاعة الكافية ليؤمن أن ذلك من حقه ولا يقبل بأقل من حقه، وليس أدل على صحة مثل هذا الزعم من دعوة يوسف عليه السلام، فبعد أن راودته نسوة المدينة عن نفسه، وألحن في طلبه، ضاق بالأمر ذرعا، وما عاد يستطيع أن يقاوم كل تلك الإغراءات أكثر من ذلك، توجه إلى ربه بالدعاء بنبرة لا تخلو من القوة في الطلب:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: 33]

ألا تشعر - عزيزي القارئ- بقوة الطلب الذي يطلبه يوسف؟ ألا ترى ويكأن يوسف يشترط على ربه؟ نعم هو كذلك، ولكني أرى أن يوسف يؤمن أن من حقه على ربه أن يجيب دعاءه، فهو قد قاوم بكل الوسائل التي يستطيعها، ولكن الإغراء كان أكبر من قدرته هو كبشر، لذا كان لزاماً أن تتدخل قوة تنقذه مما هو فيه من الكرب، ولعلي أجزم أنه لو لم يستجيب الله لطلب يوسف (وهو أمر يستحيل حصوله) ووقع يوسف في الإثم لما كان لرب يوسف على يوسف حجة، لأن حجة يوسف على ربه حينئذ ستكون أقوى من حجة ربه عليه. إن إصرار يوسف على طلبه وإيمانه بأن هذا حق له على ربه، هو الذي سوّغ الاستجابة الربانية الفورية على النحو التالي:

- ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: 34]

وهذا بالضبط ما نظن أنه ما يقع في باب قوله تعالى:

- ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٞ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [النمل: 62]

ألم يكن يوسف مضطراً لنجده تأتيه من ربه؟ فلو لم يقاوم يوسف كل تلك الإغراءات، وتوجه إلى ربه بمثل هذا الدعاء لما تحصلت له الاستجابة الربانية، لأن دعاءً كهذا يقع في باب دعاء المضطر، والله قد تعهد بأن يجيب دعاء المضطرين.

وعلى العكس من ذلك يقع دعائي في العام الماضي أن يرزقني الله ثمن الأضحية في يوم النحر، فقد كان طلبي على نحو: أن لو رزقني الله ثمن الأضحية لفعلت، فلم يرزقني الله ذلك، ولما تفقدت حالي، وجدت أني لم أكن أملك ثمن أضحية واحدة فقط ولكن ثمن أضحيات كثيرة، ولكني اشترطت القيام بذلك إن رزقني الله ثمن الأضحية وكان لسان حالي يقول ويكأني لا أملك ثمن أضحية واحدة، ألا ترى - عزيزي القارئ- أني كنت أكذب، فلو كنت صادقاً في طلبي، مضطرا إليه لتحصلت الاستجابة الربانية على الفور، فلو كنت مثلاً على عادة أن أضحي كل عام، ثم جاء ذاك العام ولم أكن فعلاً أملك ثمن الأضحية، ودعوت الله دعوة المضطر المحتاج الذي لا حول له ولا قوة، هل تتوقع أن يرد الله دعائي حينها؟!

إننا نؤمن أنّ الله لم يرد دعاءهم عندما كانوا مخلصين مضطرين:

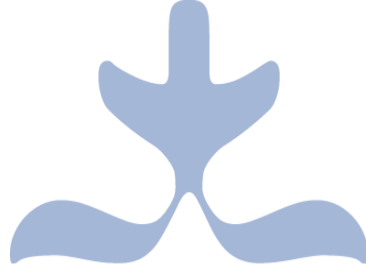
- ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [يونس: 22]

فكانت الاستجابة الربانية حاصلة نتيجة لذاك الإخلاص وذاك الاضطرار حتى لو كان ما آلت إليه الأمور بعد ذلك هي عاقبة وخيمة عليهم، لأن ذلك طلبهم وتلك رغبتهم:

- ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت: 65]
- ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: 32]

وللحديث بقية

01-06-2011



# صلاة الإستسقاء

# الجزء الخامس



# صلاة الاستسقاء – الجزء الخامس

## الدعاء يقع في باب المشيئة ولا يقع في باب الإرادة

خلصنا في المقالة السابقة إلى أن الله يجيب دعوة المضطر، وقدّمنا مثال دعوة نبي الله يوسف على ذلك، ولو تفقدنا بعض أدعية الخلق التي تمت الإجابة الربانية عليها لوجدنا عنصر الحاجة (المضطر) متوافرة، وهنا نعيد تلك المواقف لتمحيصها من هذا الجانب:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران: 38-39]
- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝٤٠ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ۝٤١﴾ [آل عمران: 40-41]
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ۝٩ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾ [مريم: 4-10]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ۝٢٦ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ۝٢٧ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ۝٢٨ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ۝٣٠ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ۝٣٢ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ۝٣٣ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ۝٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ۝٣٥ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٣٦﴾ [طه: 25-36]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٢٦ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٢٧﴾ [المؤمنون: 26-27]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءًۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤١﴾ [المؤمنون: 39-41]

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوۡمِي كَذَّبُونِ ١١٧ فَٱفۡتَحۡ بَيۡنِي وَبَيۡنَهُمۡ فَتۡحٗا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١١٨ فَأَنجَيۡنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩ ثُمَّ أَغۡرَقۡنَا بَعۡدُ ٱلۡبَاقِينَ ١٢٠﴾ [الشعراء: 117-120]
- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمۡتُ نَفۡسِي فَٱغۡفِرۡ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ١٦﴾ [القصص: 16]
- ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢١ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 21-23]
- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤ فَجَآءَتۡهُ إِحۡدَىٰهُمَا تَمۡشِي عَلَى ٱسۡتِحۡيَآءٖ قَالَتۡ إِنَّ أَبِي يَدۡعُوكَ لِيَجۡزِيَكَ أَجۡرَ مَا سَقَيۡتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيۡهِ ٱلۡقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفۡۖ نَجَوۡتَ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٥ قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ٢٦﴾ [القصص: 24-26]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٣٠ وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢ وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤﴾ [العنكبوت: 30-34]
- ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ٤٤﴾ [ص: 41-44]

ولكنّنا نود الإشارة إلى أنّه لا يجب أن يفهم من كلامنا هذا أن الله لا يتقبّل إلاّ دعاء المضطر، بل على العكس تماماً، فكما يتقبل الله دعوة المضطر يتقبل أيضاً دعوة غير المضطر، فها هو نبي الله سليمان يدعو ربه غير مضطر لما يطلب، وإنما رغبة في التملك:

- ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ٣٥﴾ [ص: 35]

فكانت النتيجة على النحو التالي:

- ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ أَصَابَ ٣٦ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٣٩ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٤٠﴾ [ص: 36-40]

وها هو نبي الله موسى يطلب رؤية الذات الإلهية غير مضطر لذلك وإنما طامعاً فيها:

- ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

فلا أخال أن عنصر الاضطرار كان متوافراً في مثل هذه الحالات، إلا أن الرد الإلهي جاء مباشراً إيجاباً كان أم سلباً، فوهب لسليمان ذاك الحكم الذي طلبه، ورد طلب موسى لعدم قدرة موسى الجسدية على تحمل رؤية الذات الإلهية (للحديث حول هذا الموضوع ندعو القارئ الكريم إلى الرجوع إلى مقالتنا تحت عنوان أين تمت مناداة الله نبيه موسى)

وهنا نبادر القارئ الكريم بالتساؤل التالي: لِمَ جاء الرد الإلهي على مثل هذه الدعوات على الرغم من عدم وجود عنصر الحاجة (أو الاضطرار)؟

الجواب: إننا نزعم أنه من أجل أن تتحقق مثل هذه الدعوة فلا بد أن يتوافر فيها عنصر المشيئة ولا يكفي توافر الإرادة فقط، وهذا ما سنحاول تجليته- بحول الله وتوفيقه- في هذا الجزء من المقالة.

(وهنا ندعو القارئ الكريم إلى قراءة مقالتنا تحت عنوان: مقالة في التسيير والتخيير للوقوف على بعض المعاني للتفريق بين الإرادة والمشيئة).

أما بعد:

## في باب الدعاء: لا تجعل إرادتك تتعارض مع مشيئتك

غالباً ما تقبّل الناس واقع الحال على ما هو عليه، فإن هو مرض ودعا الله أن يعافيه من مرضه ولم تحصل تلك العافية، رجع إلى ربه متقبلاً واقع حاله، ويكأنه يعتبر أنّ في عدم تقبّله لواقعه رداً أو طعناً بقضاء الله وقدره، أليس هذا ما يحصل عند الكثير من الناس؟ إننا نظن أن مثل هذا السلوك ربما يكون سبباً في عدم تحقق الدعاء، ولكن كيف؟

إننا نزعم أنّ قبول قضاء الله يتمثل فيما تم وانقضى من الأمر ولا علاقة له بما سيحصل لاحقاً، فهناك إذاً حاجة للتمييز والفصل الدقيق بين أن يتقبل الإنسان ما تم وانقضى من الأمر من جهة وما لم يتم ولم يحدث بعد من جهة أخرى. فأنت إن مرضت لابد أن تتقبل الواقع فتقر بحقيقة مرضك، ولكن ذلك لا يعني استسلامك للمرض وقبولك له أو رضاك به، وإن أنت لم ترزق الذرية فعليك أن تتقبل واقع الحال وتقر به على ما انقضى منه، ولكن لا يجب الاستسلام له والقبول به على نحو استحالة تغيّره وتبدلّه، فالدعاء أصلاً هو في الحقيقة طلب لتبديل وتغيير واقع الحال، فأنت إن طلبت من ربك الصحة، فأنت إنما تطلب أن تتغير حالك من وجود المرض إلى حالة الشفاء منه كما في حالة أيوب، وإن أنت طلبت الذرية فأنت تطلب تحول حالتك من عدم وجود الذرية إلى حالة وجودها كما فعل زكريا، وهكذا.

إنّ مراد القول هو أن على الداع أن لا يرضى بواقع حاله إلا من حيث ما مضى منها، ولكنه يجب أن تكون مشيئته متوافرة في تغيير مستقبلها، وربما لصعوبة الفكرة وغرابتها لابد من تبسيطها بالمثال، وقد لا أجد -حتى اللحظة - مفراً من الوقوف ملياً عند مثال زكريا عليه السلام لنتفقده من هذا الجانب:

- ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

تأمل - عزيزي القارئ- الآية الكريمة جيداً، ما الذي يمكن أن نفهمه من طريقة صياغة زكريا لطلبه؟ إنّ من أبسط ما يمكن أن نخلص إليه هو بالرغم من معرفة ويقين زكريا بأن الله هو خير الوارثين، لكنّه لم ينكر حقيقة الرغبة التي تجول في خاطره (كما يفعل الكثيرون مخطئين). وبكلمات أكثر دقة فإننا نقول: إنّ المدقق في الآية الكريمة يجد أنّ زكريا لا يحاول أن يتحايل على نفسه، بل يقدم رغبته (أو لنقل مشيئته) كما تجول في خاطره، فهو يقر بأن الله هو خير الوارثين، ولكنّه لا ينكر رغبته في الحصول على الذرية:

- ﴿... رَبِّ لَا تَذَرۡنِي فَرۡدٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٨٩﴾ [الأنبياء: 89]

وعند إسقاط هذه الصورة على واقعنا، نجد سلوك الناس مغايراً تماماً لفهم زكريا، فغالباً ما تعلل من لم تتحصل له الذرية بأن الله هو خير الوارثين ورضي بحظه ونصيبه (كما يرغب أن يسميه) منها، وهذا – في رأينا- سبب في عدم تحقق الاستجابة الربانية لدعائك، فإن كنت راغباً في شيء فلا تحاول التعلل بالقدر ليثنيك عن طلبه، فكن صادقاً فيما تريد من الله أن يحققه لك، فبالرغم أنّ الشخص يكون راغباً في الثروة، طالباً لها، إلا أنه يحاول أن يتّكر رغبته تلك إذا لم تتحقق، وهنا يقع التناقض بين إرادة الإنسان ومشيئته، فنحن نظن أن الله الذي يعلم خائنة الأعين، المطّلع على ما في الصدور يعلم ما يجول في خاطرك، فإن أنت كنت راض عن واقع حالك فذاك ما جنته نفسك، مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَۚ وَأَرۡسَلۡنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولٗاۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا ٧٩﴾ [النساء: 79]
- ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١٦٥﴾ [آل عمران: 165]

وإن لم تكن راض عن واقع حالك، ولكنك حاولت التحايل عليه بالتعلل الكاذب، سيحصل عندها تضارب بين إرادتك (رغبتك الدفينة بالحصول عليه) ومشيئتك (ما تريده فعلاً أن يحصل لك)، وسيكون ذاك سببا في رد طلبك:

- ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾ [آل عمران: 154]

- ﴿وَإِذۡ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَأَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِ أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيۡدٞ مِّنۡهَا وَطَرٗا زَوَّجۡنَٰكَهَا لِكَيۡ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ حَرَجٞ فِيٓ أَزۡوَٰجِ أَدۡعِيَآئِهِمۡ إِذَا قَضَوۡاْ مِنۡهُنَّ وَطَرٗاۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولٗا ٣٧﴾ [الأحزاب: 37]

ولكنك إن كنت راغباً في طلبك ملحّاً عليه، لا تقبل بأقل من ذلك، فذاك سبب في قبول دعاءك، لأنّه ستتوافق إرادتك مع مشيئتك، وتأكد بأن هذه الرغبة محلها النفس، وإن كنت أنت طالباً تغير حالك فلابد من تغيير ما في نفسك مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ٩ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد: 9-11]

---

**النتيجة: إن إعلانك بما لا تخفي في نفسك، وإخفاءك في نفسك بما لا تعلن على الملأ لا يقدم ولا يؤخر في علم الله بالأمر وذلك لأن الله هو "عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ"، فلا بد إذاً من أن تطابق مشيئتك (ما سيحصل لك) إرادتك (ما تريده أن يحصل لك) ليتحقق لك الرد الإلهي.**

---

## مثال: ولد ولاّ بنت؟!

لتوضيح الصورة بالمثال من واقع حياة الناس، فإننا نتعرض لأمر غالباً ما حارت فيه عقول الناس ألا وهو حصول بعض الناس على ذرية من الذكور وبعضهم على ذرية من الإناث، وبقى قسم ثالث (على قلته) بلا ذرية، وأخفق العلماء –في رأينا- في تفسير هذه الظاهرة عندما لم يجدوا أفضل من إقحام الناس في عالم الغيبيات، فبقيت قضيةً تؤرق الناس حتى وإن لم يقولوها صراحة، وتجادل بها الكثيرون، وانتهى الأمر بالجميع إلى القبول بالأمر ويكأنه قدر رباني لا مناص منه ولا سبيل إلى تغييره. ولكن حتى لو لم يكن هناك مجال لتغيره (كما يظن القدريّون المنكرون للقدرية) هل هذا – يا ترى- أمر قدري لا مجال لفهمه؟

إننا نقول أنهم قدريون منكرون للقدرية لأنهم في الوقت الذين يرفضون فكر القدريين جملة وتفصيلا لا ينفكوا عن الإيمان المطلق بالقدر في مثل هذه الأمور، فهم قدريون في التطبيق منكرون للقدرية في التفكير.

قبل الدخول في هذه الجدلية لابد أن يدرك القدريّون أن هذا الأمر وإن وقع في باب الغيبيات في الماضي ولم يكن هناك مجال أن يتدخل به الخلق كما كان ظنهم على الدوام، لم يعد الأمر على هذه الشاكلة في العصر الحديث بعد التقدم الهائل في علم الطب، فها هم العلماء يستطيعون التدخل وفصل اللقاحات وتحديد جنس المولود (لا بل وخصائصه)، فأين يا ترى ذهب القدر الذي كان يتحكم في تحديد جنس المولود؟!

إنّ ما يهمنا هنا هو إثارة التساؤل البسيط التالي: لِمَ يرزق فلان بعشرة من الذكور ويرزق أخ له بعشرة من الإناث، ويتقاسم جارهم نصيبه خمسة بخمسة، وهكذا؟

⇐ لِمَ يكون قدر الله على هذا النحو؟ هل في هذا عدل إلهي؟
⇐ سيرد الجميع بالقول: نعم هو عدل مطلق.

ولكن تكمن المعضلة – في رأينا- في التعارض بين ما يجول في خاطرهم وما يمارسوه على أرض الواقع، فهم في الوقت الذي يقولون فيه مثل هذا الكلام لا تنفك **وساوس الشيطان** أن تفتك بهم (كحالي أنا الآن)، فالحديث والخوض في هذا الجدل، وعدم القبول بواقع الحال، لا شك هو من وساوس الشيطان بالنسبة للكثيرين، أليس كذلك؟ وفي الوقت الذي يؤمن البعض أن هذا تقسيم رباني، قد لا يتردد الكثير منهم عن الزواج بامرأة أخرى عسى أن يأتي الخير من طريق جديدة. وفي الوقت الذي ربما يؤمن البعض أن هذا تقسيم رباني عادل، لا تتوقف حاجته ورغبته ومحاولاته في الحصول على ذرية من الذكور، وهكذا.

إذاً، لم لا ننفك عن طرح هذا التساؤل إن كنا نؤمن حقاً أن ذلك من وساوس الشيطان وأن تلك قسمة ربانية عادلة؟ والأهم من ذلك كله هو: ما ذنبي أنا أن يكون نصيبي البنات بينما يكون نصيبك أنت الذكور؟ هل في هذا التقسيم (حتى وإن كان ربانياً كما يظن الكثيرون) عدل؟ وأين العدل فيه ما دام أن الله نفسه (كما ذكرنا في أكثر من مقالة سابقة لنا) لا يرضى بالبنات؟ وأين العدل الإلهي والله نفسه لا يساو الحصول على ذرية من الذكور بالحصول على ذرية من الإناث؟ ألم يقل الله في محكم كتابه الكريم:

- ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ۝٢١ تِلۡكَ إِذٗا قِسۡمَةٞ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم: 21-22]

ألم يقل الله في محكم التنزيل

- ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ۝٥٧ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ۝٥٨﴾ [النحل: 57-58]

ألم يقل الله في محكم التنزيل

- ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمٗا ۝٤٠﴾ [الإسراء: 40]

(للتفصيل في هذا الموضوع أرجو قراءة مقالتنا تحت عنوان: جدلية الذكر والأنثى، وكذلك مقالتنا تحت عنوان: تعدد الزوجات، ومقالتنا تحت عنوان: زواج المتعة)

ألا تدل هذه الآيات الكريمة منفصلة ومجتمعة أن الله لا يعتبر من العدل أن يأخذ فريق الذكور ويأخذ فريق آخر الإناث، فلم نقول نحن أنّ ذلك عدل؟ والأهم من ذلك كله هو أنه في حين أننا نتلفظ بالقول بأن هذا عدل، لا تنفك أن تكذّب مثلَ قولنا هذا تصرفاتُنا وسلوكياتُنا اليومية، فنقع في إشكالية التنافر بين (بمفردات دقيقة) ما نريد وما نشاء. وبكلمات علمية فإننا نقول لقد حصل تنافر بين إرادتك (حبك الحصول على الولد) ومشيئتك (سلوكك في إظهار عدم التمييز بين الذكر والأنثى).

للخروج من هذه الأزمة، فإننا نرى الحاجة ملحة للوقوف عند الأمور وطلبها بمسمياتها الحقيقية، إن أبسط ما يمكن أن تخرج به هو إقرارك بأنّ حصول طرف على ذرية من الذكور وحصول طرف آخر على ذرية من الإناث ليس من العدل في شيء، وكفى.

ولكن أليس ذلك من الله؟ ما الذي تقول يا رجل؟ اتق الله، ما هذه التخاريف وهذا الهذيان؟

نقول كلا، ذلك ليس من الله، والله لا شك عادل، وما دام أن الله لا يقبل إلا أن يكون عادلاً فمن الاستحالة أن يكون هو السبب في حصول نفر من الناس على ذرية من الذكور وحصول نفر آخر على ذرية من الإناث ما دام أن الله نفسه قد أقر بأن هذه القسمة ضيزى:

- ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ۝٢١ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ۝٢٢﴾ [النجم: 21-22]

---

**النتيجة: إننا نزعم الفهم أن حصولك على ذرية من الذكور وأخرى من الإناث هو من نفسك (وبالتحديد من مشيئتك)، وليس لله دخل فيه.**

---

- ولكن كيف؟ وأين الدليل على هذا الهذيان؟ سيرد الكثيرون بالقول.

نقول إنّ الدليل على مثل هذا الزعم متوافر بغزارة في كتاب الله تعالى:

## مثال: زكريا يطلب من ربه الذرية:

لنمعن التفكير في طلب زكريا الذرية من ربه بعد أن تعذّر له ذلك زمناً طويلاً:

- ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ۝٣٨﴾ [آل عمران: 38]

ألا تدل الآية الكريمة أن زكريا قد طلب من ربه الذرية الطيبة؟ ولكن هل توقف زكريا عند هذا الحد في طلبه؟ فها هو زكريا في مكان آخر من كتاب الله يحدد طلبه على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ۝٤ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧﴾ [مريم: 4-7]

فلو دققنا النظر في طلب زكريا جيداً لوجدنا أن دعاء زكريا لم يتوقف عند طلبه الذرية الطيبة وحسب، ولكنّه حددها على نحو ما يشاء، فلقد طلب زكريا على وجه التحديد وَلِيًّا ، فلغة زكريا تفيد بما لا يدع مجالاً للتأويل أنه يتحدث عن ذرية من الذكور فقط، فقال:

- ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: 6]

فزكريا لم يكن راغباً في ذرية من الإناث، وإنما كان طالباً ذرية من الذكور، فتحصل له ما شاء بسبب توافق إرادته مع مشيئته، أو بكلمات أخرى لأن مشيئته صدّقت إرادته.

## امرأت عمران تطلب

وبالمقابل نجد مثال امرأت عمران التي لم تحدد مشيئتها فيما تريد، فبالرغم من معرفة وإقرار امرأت عمران بأن الذكر ليس كالأنثى إلا أنها لم تحدد رغبتها (مشيئتها) بأي منهما حتى وإن كانت راغبة (إرادتها) بالحصول على الذكر، فجاء طلبها على نحو:

- ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 35-36]

ونحن نسأل: لم صاغت امرأت عمران قولها على نحو " رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ "، ليأتي بعد ذلك مباشرة التأكيد الرباني البسيط " وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ "؟

إنّنا نظنّ أنّ الجواب على هذا التساؤل يتمثل بما كان يجول في خاطرها قبل أن تضع مولودتها، فهي كانت تتوقع واحداً من الاحتمالين، إما الذكر أو الأنثى ولكنها لم تكن متيقّنة، قاطعة أمرها بخصوص جنس المولود، فها هي تؤكده بعدما وضعت ما في بطنها. لذا فإن مشيئتها لم تكن محسومة بواحدة من الاتجاهين كما كانت مشيئة زكريا يوم أن طلب من ربه ذرية طيبة من الذكور.

إننا نود القول أنه ليس لله دخل في تحديد الذرية التي تحصل عليها، فذاك متعلق بمشيئتك، فإن كانت مشيئتك الحصول على الذكور كانت النتيجة ذكراً، وإن كانت مشيئتك الإناث كانت النتيجة الأنثى، وإن كانت مشيئتك غير محسومة، فكلا الاحتمالين وارد، وهذا الزعم واضح تماماً في كتاب الله إنْ نحن قرأنا الآيات الكريمة التي تتحدث عن هذا الموضوع على النحو الذي تسمح به لغة الآيات نفسها، دون إقحام عقائدنا فيها من ذي قبل، وهنا ندعو القارئ الكريم إلى تدبّر الآيات الكريمة التالية من هذا المنظور. قال تعالى:

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 49-50]

إننا نظن أن الضبابية في الفهم قد حصلت في مثل هذه المواقف لأنّ المفسرون غالباً ما أقحموا عقيدتهم في مثل هذه الآيات قبل الوقوف على معظم معانيها المحتملة، فهم غالباً ما يدخلوا في صلب

مثل هذه الآيات الكريمة بالعقيدة السائدة لديهم، المتلخّصة بأن هذا الأمر خاضع لمشيئة الله، فلا داع إذاً للخوض فيه ما دام أن أمره محسوم مسبقاً.

ونحن إذ لا ننوي أن ننكر عليهم صنيعهم هذا، لنود أن نجرّب (أقول نجرّب) مع القارئ الكريم قراءة الآية الكريمة بطريقة أخرى مادامت اللغة التي صيغت بها الآية الكريمة تسمح بذلك.

أما بعد،

نحن نظن أن الإبهام التركيبي (أو structural ambiguity باللسان الأعجمي) يقع هنا بسبب إشكالية الضمير المستتر في قوله تعالى:

- ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩﴾ [الشورى: 49]

فعلى من يعود الضمير المستتر لفعل المشيئة "**يَشَاءُ**" في الآية الكريمة؟ وبكلمات لغوية خاطئة (لكنها سائدة) نقول: من هو فاعل فعل المشيئة؟

لعل معظم (إن لم يكن كل) المفسرين يظنون أن ضمير الفاعل المستتر للفعل **يشاء** في الآية السابقة يعود على الذات الإلهية، أي أن تلك المشيئة خاصة بالله وحده، فنرد عليهم بالقول إن كلامكم هذا صحيح من منظور قوله تعالى:

- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ۝٣٠﴾ [الإنسان: 30]
- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: 29]

ولكن، لو دققنا النظر في قول الحق جيداً لوجدنا الترابط الذي لا انفكاك فيه بين مشيئة الله ومشيئة الإنسان، أليس كذلك؟ فالآيات الكريمة تؤكد استحالة حصول مشيئة الإنسان دون حصول مشيئة الله، إن صح هذا الزعم، فلا مانع إذاً من قراءة الآية الكريمة السابقة على نحو أن الفاعل المستتر يعود على الإنسان نفسه، ولنعيد الآية الكريمة ونحاول قراءتها من هذا المنظور:

- ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۝٤٩ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ۝٥٠﴾ [الشورى: 49-50]

فنرجو أن نمنح الفرصة الكافية لملاحقة هذا الفرضية للنّظر في ما يمكن أن تعود علينا من أفهام، فإن حصل وحلّت لنا إشكاليات سابقة، فلا ضير في متابعتها والوقوف عند استدلالاتها.

أما بعد،

إن زعمنا بأن الفاعل المستتر لفعل المشيئة ربما يعود على الشخص نفسه يعني بأن الحصول على الذكر أو الأنثى هو أمر متعلق بمشيئة الشخص نفسه، وليس للإله دخل في هذا التقسيم، فمن حصل على

الذكر كان بسبب مشيئته، ومن حصل على الأنثى كان بسبب مشيئته، ومن كان عقيماً كان بسبب مشيئته هو نفسه، وكفى.

**التعليل:**

دقق – عزيزي القارئ- جيداً في الآية الكريمة لتجد فيها فعلين وهما فعل الهبة (يهب) وفعل المشيئة (يشاء)، فإذا كان الحصول على الذكر أو الأنثى هو هبة من الله، فلم يأتي ذكر المشيئة، أي لم لم يقل الحق سبحانه شيئاً مثل:

**يهب لبعضهم الذكور ويهب لبعضهم الإناث؟**

فإنْ ظننّا –كما أفهمنا السادة المفسرون- بأن الذكر أو الأنثى هو هبة من الله (وهم على حق) فلا داعي إذاً لحصول المشيئة (وبالتالي لا داعي لوجود فعل المشيئة "يشاء")، ولكن المدقق في اللفظ القرآني يجد أنه في الوقت الذي يكون هذا العطاء الرباني هبةً (سواءً كان ذكراً أو أنثى) بدليل تكرار اللفظ في الحالتين:

- ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49]

نجد أن تحديد جنسه مرتبط بالمشيئة:

- ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49]

ولكن الإشكالية تكمن في تفسير الإبهام التركيبي، فكيف تقرأ هذه الآية الكريمة؟

إننا نزعم أنّ لهذه الآية الكريمة قراءتان محتملتان تعتمدان على المعنى المقصود من الكلام نفسه، فإن نحن ظننا أن فاعل فعل المشيئة يعود على الذات الإلهية، تكون القراءة على النحو التالي بجواز الوقف الخفيف (أو تغير نغمة الصوت) بعد الفعل يشاء مباشرة:

- ﴿... (يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ) إِنَٰثٗا (وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ) ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49]

لتشكل العبارة "(يهب لمن يشاء)" كتلة واحدة، تكون بعدها كلمة "إناثاً" أو كلمة "ذكوراً" مفعولاً به للجملة بأكملها.

أما إن نحن ظننا أن الفاعل المستتر لفعل المشيئة يعود على الشخص نفسه يكون الوقف الخفيف (أو تغيير نغمة الصوت) جائزاً بعد الفعل يهب مباشرة

- ﴿... (يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ) إِنَٰثٗا (وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ) ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49]

لتشكل العبارة "( لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا)" و العبارة "( لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ)" كتلة واحدة كلها في محل نصب مفعول به للفعل يهب.

**الاستنتاجات:**

**أولاً**، إن من أبسط الاستنتاجات التي يمكن أن نخرج بها (إن نحن ظننا بوجاهة القراءة الثانية التي يكون فيها الفاعل المستتر لفعل المشيئة يعود على الشخص نفسه) هو أنّ الحصول على الذكر أو الحصول على الأنثى هو هبة من الله، فلو كان الحصول على الذكر هبة من الله بينما الحصول على الأنثى ليس بهبة من الله لربما جاء اللفظ على نحو:

- **يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء الذكور ولمن يشاء إناثاً**

فلو وردت مفردة هبة ملازمة فقط للذكور ولم ترد ملازمة للإناث، لربما فهمنا النص القرآني على نحو أن الحصول على ذرية من الذكور هي هبة بينما الحصول على الذرية من الإناث قد لا تكون كذلك، ولكن لمّا تكررت لفظة "يهب" في الحالتين (مع الذكور ومع الإناث) كان لزاماً أن نؤمن بأن الحصول على الذكور أو الحصول على الإناث هي هبة ربانية، وهنا يبرز التساؤل التالي: ما دام أن الله يعطي ذلك كهبة، فلم يقدمها للبعض على شكل الذكر ويقدمها لآخرين على شكل إناث؟

- ﴿...يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49]

ولتبسيط الفكرة، فإننا نسوق المثال التالي (ولله المثل الأعلى) للتوضيح: هب أنك أحضرت لي هدية في واحدة من المناسبات، وشعرت أني غير راغب في مثل هذه الهدية (أو الهبة)، هل كنت ستقدم لي نفس الهدية في المرة الثانية أو في مناسبة أخرى؟ فلو تزوجت أنت عشرة نساء، وقمت أنا في كل مرة بتقديم نفس الهدية التي لا تريدها، هل تعتبر تلك هبة مني لك؟ كلا، إلاّ إن كنت قاصداً أن أضايقك في كل مرة أقدم لك تلك الهدية التي لا ترغب. إنّ السؤال الذي كنت ستطرحه عليّ (حتى ولو لم تتلفظ به صراحة) هو: لم تقدم لي نفس الهدية في كل مرة بالرغم أنك عالم أني غير راغب فيها؟

وبالمقابل، لو كنت أنا محباً راغباً متلهفاً على الهدية التي أحضرتها لي في المرة الأولى، هل كنت سأتضايق من هديتك لو قدمتها لي مرة أخرى؟ وهل كنت ستشعر أنت بالحرج لو قدمت لي الهدية نفسها أكثر من مرة ما دمت أني راغب فيها؟

**ثانياً**: تحديد جنس المولود مرتبط بالمشيئة

إننا نظن أنه في الوقت الذي نفهم فيه أن الحصول على الذرية من الذكور أو الذرية من الإناث هي هبة من الله، فإن الله يقدم تلك الهبة بالشكل الذي يشاءه الشخص نفسه، وهذا يعني أنه في حين أن إعطاء الذرية (بغض النظر عن جنسها) هي هبة من الله، إلاّ أن تحديد جنسها متعلق بمشيئة الفرد نفسه ولا علاقة لذلك بمشيئة الله إلا من باب إلزامية ارتباط مشيئة الخلق بمشيئة الخالق. والدليل على ذلك يأتي من الكرم الإلهي بالاستجابة لطلب أنبياءه عندما وهب لهم الذرية:

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: 84]

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]
- ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢﴾ [الأنبياء: 72]
- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 90]
- ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 27]

إنّ المدقق في هذه السياقات القرآنية جيداً يجد أن الله قد استجاب طلبهم فوهب لهم الذرية، فوردت لفظة "وهبنا" في جميع هذه السياقات، ولكنها خلت جميعها من لفظة "شئنا"، أي حصول المشيئة الربانية. فلو كانت تلك الهبة مرتبطة فقط بمشيئة الله دون حصول مشيئة العبد فيها لجاءت – على أقل تقدير- واحدة من هذه السياقات على النحو التالي:

- ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]

وهنا ربما يرد البعض بالاستدراك التالي: إذا كان كلامك هذا صحيحاً، فلم لا ترد واحدة من هذه السياقات على نحو:

**الحمد لله الذي وهب لي على الكبر ما أشاء إسماعيل وإسحق.**

فنقول أن السبب في ذلك بسيط وهو ارتباط مشيئة الخلق بمشيئة الخالق، فنحن نود التأكيد على أنه لا يجب أن يفهم من كلامنا السابق بأن مشيئتك ربما تتعارض مع مشيئة خالقك، فمشيئتك بالولد لا يعني أن الله قد يشاء لك الأنثى، أو العكس، فما دام أن القاعدة الربانية هي على نحو:

- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾ [الإنسان: 30]

كان لزاماً توافر مشيئتك التي لا تنفك عن الارتباط بمشيئة خالقك، فحصول مشيئتك مرتبطة بحصول مشيئة خالقك، فما دام أن مشيئتك قد توافرت فاعلم - دون أدنى شك - بأن مشيئة خالقك قد سبقت مشيئتك، لذا فإننا نرى أن الضمير المستتر لفاعل فعل المشيئة في الآية الكريمة السابقة لا يعود على الذات الإلهية، وهو لا يعود على الإنسان نفسه، وإنما يعود على الذات الإلهية والإنسان معاً، وفي هذا تحقيق لقول الحق:

- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٣٠﴾ [الإنسان: 30]
- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ [التكوير: 29]

ولكن يبقى المطلوب منك هو أن تتعلم كيف تتحصل لديك المشيئة بما تريد فعلاً.

قبل الدخول في هذا الموضوع لا بد من الوقوف عند بعض المعاني الأخرى التي تجلّبها الآية الكريمة التي كان جلُّ النقاش منصباً حولها وهي:

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 49-50]

وفي هذا المقام فإننا سنتوقف في محطتين اثنتين وهما قول الحق " أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ " وقوله تعالى " وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ "، وسنبدأ بالثانية قبل الأولى:

## العقم: ليس هبة من الله

إن من أبسط المشاهدات التي ربما نجلبها من النقاش السابق عند التعرض لموضوع العقم هو التأكيد على أن العقم ليس هبة من الله. ففي حين أنّ الآية الكريمة تؤكد على أن الحصول على ذرية من الذكور أو الحصول على ذرية من الإناث هو هبة من الله بدليل تكرر اللفظ كما ذكرنا سابقاً:

- ﴿... يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49]

لا نجد مثل هذا اللفظ "يهب" عند الحديث عن العقم، فتحول اللفظ من الفعل "يهب" في حالة الذرية إلى الفعل "يجعل" في حالة العقم:

- ﴿... وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 50]

فمما لا شك فيه هو اختلاف اللفظ في الحالتين، في حالة الذرية (سواء كانت ذكراً أم أنثى) مقابل حالة العقم، فالذرية بنص الآية الكريمة هي هبة من الله " يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ "، ولكن العقم بنص الآية الكريمة هو **جَعْلٌ** من الله " وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ "، فما الفرق إذاً؟

لاستجلاء الصورة كان لزاماً علينا الخوض في معاني الفعل "جعل" كما يرد في السياقات القرآنية المختلفة. فنحن نفتري الظن بأن من أبسط معاني الفعل الثلاثي **جعل** واشتقاقاته – حسب فهمنا لسياقاته القرآنية- هو التحول من حالة إلى حالة، فأنت عندما تقول "جعلت الدقيق خبزاً" فأنت إنما حوّلته من حالة "الدقيق" إلى حالة "الخبز"، والمتتبع للسياقات القرآنية لفعل **جعل** ومشتقاته يجد حالة التحول هذه واضحة، ولنقدم بعض الأمثلة أولاً، ثم ننتقل بعدها لنربط ذلك بقضية العقم

فللنظر أولاً إلى السياقات القرآنية التالية حيث ترد مفردة "جعل" واشتقاقاتها بمفهومها الأوسع:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: 20]
- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْيَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: 97]
- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [الأنعام: 1]
- ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾﴾ [الأنعام: 96]
- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: 97]
- ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الأعراف: 10]
- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: 15]
- ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾﴾ [يوسف: 55]
- ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: 62]
- ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يوسف: 70]
- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: 100]
- ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الحجر: 16]
- ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [النحل: 78]
- ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾﴾ [الكهف: 1]
- ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾﴾ [مريم: 24]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾﴾ [هود: 82]
- ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾﴾ [الحجر: 74]

- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعۡمِهِمۡ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَاۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمۡ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمۡۗ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ١٣٦﴾ [الأنعام: 136]
- ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]
- ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ١٩٠﴾ [الأعراف: 190]
- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: 30]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [الحجر: 96]
- ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾ [النحل: 57]

ولكن ما يهمنا على وجه التحديد هو الوقوف عند واحدة من معاني الفعل "جعل" كما ترد في السياقات القرآنية، وفي هذا المقام فإننا نزعم الفهم أن مفردة "جعل" تفيد التغيير من حالة إلى حالة، ولنتأمل جيداً السياقات القرآنية التالية:

- ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦﴾ [الكهف: 96]

فزبر الحديد لم يكن ناراً إلى بعد أن "جعله ناراً".

- ﴿قَالَ هَٰذَا رَحۡمَةٞ مِّن رَّبِّيۖ فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا ٩٨﴾ [الكهف: 98]

وهو على حالته الحالية ليس دكاً ولكنه سيصبح كذلك (أي سيتحول إلى تلك الحالة) بعد أن يجعله الله كذلك. وهذه الفكرة جلية في كل السياقات التي ترد فيها مفردة "جعل" ومشتقاتها:

- ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠﴾ [مريم: 30]
- ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا ٤٩﴾ [مريم: 49]
- ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩﴾ [طه: 29]
- ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ٥٧ فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرٗا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ ٥٨﴾ [الأنبياء: 57-58]
- ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣﴾ [المؤمنون: 12-13]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيۡنَهُۥ ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ رُكَامٗا فَتَرَى ٱلۡوَدۡقَ يَخۡرُجُ مِنۡ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٖ فِيهَا مِنۢ بَرَدٖ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصۡرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُۖ يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ يَذۡهَبُ بِٱلۡأَبۡصَٰرِ ٤٣﴾ [النور: 43]
- ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ٥٣﴾ [الفرقان: 53]

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾﴾ [الفرقان: 54]
- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾﴾ [القصص: 4-5]
- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 27]
- ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: 8]
- ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [يس: 33-34]
- ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾﴾ [فصلت: 44]
- ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الزخرف: 3]
- ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ [الطلاق: 7]
- ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾﴾ [المزمل: 17]
- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴿٥﴾﴾ [الفيل: 1-5]

وبالتالي لم تكن الأرض مثلاً مهداً والسماء بناءً (أو سقفاً) قبل أن تُجْعَلْ:

- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: 22]
- ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: 53]
- ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنبياء: 31]
- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: 32]

أما المعنى الآخر الذي يجلبه الفعل **جعل** ومشتقاته في السياقات القرآنية هو أنّ الحالة التي كانت قبل الجعل هي الأصل أما الاستثناء فهو في الحالة التي تمت بعد الجعل، ولنتدبر بعض هذه السياقات من هذا المنظور:

- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِهِۦۗ قُلۡ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمۡ إِلَى ٱلنَّارِ ٣٠﴾ [إبراهيم: 30]
- ﴿ٱلَّذِينَ يَجۡعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۚ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ٩٦﴾ [الحجر: 96]
- ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشۡتَهُونَ ٥٧﴾ [النحل: 57]

فالأصل يتمثل في أن ليس لله أنداداً، وليس مع الله إلهاً آخر، وليس لله البنات، وما كان ذلك إلاً فتراءً على الله بعد أن جعلوه له.

ما علاقة ذلك بالعقم؟

لنعيد الآية الكريمة نفسها لنتدبرها بهذا الفهم لمفردة "جعل" ومشتقاتها، فلربما خرجنا بعدئذ ببعض الاستنتاجات التي تتعلق بقضية العقم كما ورد في قوله تعالى:

- ﴿... وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ٥٠﴾ [الشورى: 50]

فمن الذي يجعل؟ أو من هو فاعل الفعل يجعل في الآية الكريمة؟ لا شك أنه الله، فهو الذي يجعل، ولا مجال هنا للتأويل على غير هذه الشاكلة، إذاً الله هو الذي يجعل من يشاء عقيماً، أليس كذلك؟

فما دام أن الله هو الذي يجعل، وما دام أن الفعل يجعل يفيد التحول من حالة إلى حالة، فإن ذلك يعني أن العقم هو جَعْلٌ من الله، أي أن الله هو الذي يسبب هذا التحول، أليس كذلك؟

فكيف إذاً كانت حالة الشخص قبل هذا التحوّل؟ لا شك أن الشخص لم يكن عقيماً ولكن الله جعله عقيماً، أي أن الله قد حوّله من حالة إلى حالة: من حالة اللاعقم إلى حالة العقم. وهذا الفهم ربما يفيدنا على أقل تقدير في أمرين أثنين متداخلين يفضي أولهما إلى ثانيهما:

1. أن جميع الخلق كانوا في الأصل في حالة اللاعقم، وما كان العقم إلا استثناءً كعملية تحول من الحالة الأولى إلى الحالة الجديدة
2. ما السبب الذي أدى إلى هذا التحول؟

## كان الخلق جميعاً في حالة اللاعقم

وفي هذا السياق فإننا نطرح التساؤل التالي: إذا كان الأصل هو الحالة التي كان عليها الناس قبل أن يجعل الله بعضهم عقيما، وأن الله قد خلق الخلق كلهم أصلاً في حالة اللاعقم، وما كان العقم إلاّ استثناءً،

فلم يجعل الله بعد ذلك بعضهم عقيماً؟ هل يعتبر هذا تحولاً (أو تغييراً) في مشيئة الله؟ ولم يغيّر الله مشيئته؟!

إننا نفهم أن هذا التحول قد حصل ليس بسبب مشيئة الله ( فمشيئة الله تتمثل في تساو الخلق جميعاً في الحالة الأولى)، وما حصل تحوّل لمشيئة الله هذه إلاّ بسبب مشيئة الخلق أنفسهم، وهنا تبرز الحاجة إلى فهم سبب وجود فعل المشيئة في قوله تعالى:

- ﴿... وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٞ ٥٠﴾ [الشورى: 50]

---

**النتيجة المفتراة من عن أنفسنا: إن حالة العقم هي حالة استثنائية تولدت عن الحالة السابقة الأصلية (وهي حالة اللاعقم)، فكان البشر جميعاً متساوين في الفرصة، وما كان حصول العقم إلاّ بسبب توافر المشيئة فيها عند بعض البشر، فكانت النتيجة الحتمية تتمثل في تغيّر مشيئة الله الأولى (بطريقة الجعل) بسبب توافر مشيئة بعض الخلق لتلك الحالة الاستثنائية. وسنرى لاحقاً أن تغير هذه الحالة الاستثنائية (اللاعقم) مستحيلة إلا بشرط واحد وهو أن يغيّر الإنسان مشيئته بنفسه، لأن القانون الرباني يتمثل بما يلي:**

---

- ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ [الأنفال: 53]
- ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ١١﴾ [الرعد: 11]

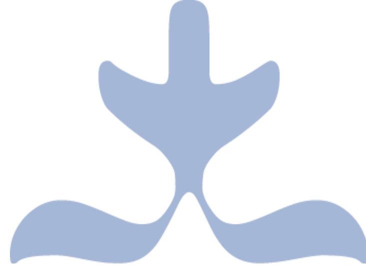
فنعمة الله (كحالة اللاعقم مثلاً) لا تغيب عن الناس إلا يوم أن يغيّر القوم ما بأنفسهم، وبالمنطق نفسه، فإن السوء الذي جلبته نفس الإنسان عليه (كالعقم مثلاً) لا يتغير إلا يوم أن يغير الإنسان ما في نفسه. لذا فإن الإنسان بحاجة أن يتعلم كيف يغيّر ما في نفسه (مشيئته) لتتغير حاله.

وما دام أنّ الحديث منصب هنا على فهم آلية العقم والإنجاب، فلا بد من التعرض أيضاً لما ورد في الآية قيد البحث وهو قول الحق:

- ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ ... ٥٠﴾ [الشورى: 50]

لنثير التساؤل التالي: ما المراد في قوله تعالى: أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ ؟ أي كيف يزوجهم الله ذكراناً وإناث؟ وهل هناك زواج لا يكون بين ذكر أو أنثى؟ الجواب نعم، وهذا ما سنتعرض له في الجزء القادم من هذه المقالة

لذا، فللحديث بقية بحول الله وتوفيقه



# صلاة الإستسقاء

# الجزء السادس



# صلاة الإستسقاء – الجزء السادس

تعرضنا في مقالتنا السابقة إلى موضوعين رئيسيين مرتبطان بقبول الدعاء وهما:

1. تحديد جنس المولود
2. العقم

وزعمنا القول أن الحصول على الذرية سواءً كان ذكراً أم أنثى هو هبة من الله بدليل توافر نفس اللفظ في الحالتين:

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 49-50]

ولكن تحديد جنس المولود (ذكر أو أنثى) مرتبط بالمشيئة بدليل ورود فعل المشيئة مصاحباً لفعل الهبة في كل حالة:

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 49-50]

وخلصنا- حسب ظننا- إلى الافتراء التالي: أن تحديد جنس المولود مرتبط بمشيئة الشخص نفسه مادام أن الفصل بين مشيئة الإنسان ومشيئة خالقة مستحيلة:

- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾﴾ [الإنسان: 30]
- ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: 29]

أما بخصوص العقم، فقد أكّدنا أن العقم ليس هبة من الله وإنما هو **جَعْلٌ** من الله، وركّزنا على معاني الفعل **جَعَلَ** كما يمكن استقصاءها من السياقات القرآنية المتنوعة التي ورد فيها هذا الفعل ومشتقاته، لنخلص بمعنيين اثنين: أولهما، أن **الجعل** يفيد التحول من حالة إلى حاله، وثانيهما، أن الحالة الأولى التي كانت قبل **الجعل** هي الأصل بينما الحالة الثانية التي نتجت عن **الجعل** هي الاستثناء، وربطنا ذلك بموضوع العقم، فزعمنا القول أن الناس كانوا في الأصل جميعاً في حالة اللاعقم، وما حصل العقم إلاّ نتيجة **للجعل،** وأكدنا كذلك على أن هذا التحول لم يكن ممكناً دون حصول مشيئة الإنسان نفسه، وهذا – في نظرنا- ربما يفسر سبب ورود لفظة المشيئة حتى في حالة العقم كما كانت في حالة إنجاب الذكور أو الإناث:

- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 50]

وسنتابع في بحثنا هذا استقصاء معاني الفعل جعل، التي ربما تسعفنا في فهم سبب حصول العقم "أو الجعل في العقم".

أما بعد،

فعند تفقد السياقات القرآنية للفعل جعل ومشتقاته التي ذكرناها سابقاً، فإننا أيضاً نزعم الفهم التالي: استحالة حصول الجعل دون توافر قوة خارجية تؤثر فيه، لتدفع بالحالة الأصلية إلى التحول إلى الحالة الجديدة، ولنتفقد السياقات القرآنية التالية جيداً:

- ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: 97]

فالكعبة البيت الحرام لم يكن ليصبح قياماً للناس لولا تدخل القوة الخارجية التي جعلته كذلك، لذا فقد كان ذلك البيت الحرام في حالته الأساسية ليس قياماً للناس بدليل أنه في حالته الأولى كان على النحو التالي:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

فبالرغم أن ذاك البيت كان أول بيت وضع للناس لكنه لم يكن قياماً للناس في حالته الأولى، وتم جعله كذلك بعد أن تدخلت القوة الخارجية لجعله قياماً للناس.

وبنفس المنطق يمكن تدبر الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ [الفرقان: 53]

فالبحران في الأصل لم يكن بينهما برزخ، وما كان ليحصل وجود هذا البرزخ إلاّ بالجعل، أي بتدخل قوة خارجية فيه، وكذلك حصل خلق الإنسان من سلالة من ماء مهين بعدما كان خلقه الأول من طين:

- ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: 7-8]

فخلق الإنسان لم يكن ليتحول من حالة الطين إلى حالة النسل دون تدخل تلك القوة العظيمة التي دفعت إلى هذا التغير، وهكذا. (ونحن ندعو إلى التفكر بمثل هذه المعاني حيثما وردت مفردة جعل ومشتقاتها في السياقات القرآنية الكثيرة والمتنوعة).

⇐ ما علاقة هذا بالعقم؟

إننا نظن أن العقم لم يكن ليحصل لولا أنه جَعْلٌ من الله، فهذا إذاً يتطلب وجود قوة خارجية تؤثر بحالة اللاعقم (الحالة الأصلية) التي خلق الناس جميعاً عليها لتحولها إلى حالة العقم (الحالة الاستثنائية)، ولكن ما هي تلك القوة؟ إنها –في رأينا- المشيئة.

إنّ من أبسط ما يمكن أن نخلص إليه من طرحنا هذا هو أن العقم لم يكن ليحصل لولا وجود قوة خارجية أدت به ليكون حقيقة واقعة بعدما كان غير موجود في الأصل، وما دام أن الله هو الذي جعل الشخص عقيماً بعد أن كان منجباً في الأساس، فلا بد من وجود دافع (أو سبب) إلى هذا التغيير، ونحن نظن أن ذاك السبب هو توافر مشيئة العقم عند الشخص الذي جعله الله عقيماً. وبكلمات أخرى، فإن العقم هو مما كسبت أيدي الناس أنفسهم، ولتغيير هذه الحالة والعودة إلى الحالة الأصلية التي خلق الله الناس عليها جميعاً وهي حالة اللاعقم فلا بد من أن يقوم الشخص نفسه بتغيير مشيئته لتتغير حالة، أي يجب أن لا تتوافر لدية المشيئة بالعقم، (كما فعل زكريا عليه السلام كما سنرى لاحقاً).

وهنا قد يرد البعض علينا بالقول: هل صحيح أن الشخص الذي جعله الله عقيماً لا يوجد لديه الرغبة بالإنجاب؟

نقول كلا، ربما تكون الرغبة بالإنجاب لديه جارفة، ولكن ليس هذا هو التشخيص الذي توصلّنا إليه، إن لب قولنا هو بالرغم من وجود الرغبة لديه بالإنجاب إلا أن المشيئة لدية بالعقم متوافرة، على عكس الشخص المنجب الذي تتوافر لديه الرغبة بالإنجاب ولكن المشيئة لدية بالعقم معدومة (إي غير متوافرة)

ونستطيع التحقق من كلامنا هذا بطريقة عمليه لا تحتاج إلى كثير عناء، فلو سألنا الشخص المنجب فيما لو تم تخييره بين الإنجاب والعقم، فما الذي سيختاره؟ لا شك أنه سيختار – إن صدقنا القول بالطبع- الإنجاب، فهو لا يستطيع تخيل حياته دون إنجاب، لذا فغالباً ما نظر المنجب إلى غير المنجب بنظرة لا تخلو من الشفقة على حاله. ولكن لو تم توجيه نفس السؤال إلى شخص عقيم، لربما وجدت القرار لديه غير محسوم، فهو يرضى بحالته ويستطيع التعايش والتكيّف معها. إن أبسط ما يمكن أن نخلص إليه من مثل هذا الرد هو: صحيح أن الرغبة بالإنجاب متوافرة عند الطرفين، ولكن المشيئة بالعقم لا توجد إلا عند الإنسان الذي جعله الله عقيما، لا لشيء وإنما لتوافر المشيئة (الاستعداد) لديه لهذا الخيار.

(وهنا نجد لزاما تنبيه القارئ الكريم إلى ضرورة التعريج على بعض القضايا التي تطرقنا لها في واحدة من مقالاتنا السابقة تحت عنوان: مقالة في التسيير والتخيير، وذلك لغرض تسليط الضوء على معنى المشيئة ليتسنى فهم القصد من كلامنا هذا عن توافر المشيئة لدى بعض الناس بالعقم)

⇐ متى يحصل العقم

إننا نظن أنه لو كان العقم غير مرتبط بمشيئة الإنسان لكان الأمر محسوم منذ اليوم الأول لولادة الإنسان، أي لولد بعض الناس في حالة العقم ولولد آخرون في حالة الإنجاب، ولكن يبقى السؤال مطروحاً: متى يبين العقم عند الإنسان؟

لا شك أن العقم لا يبين عند الإنسان إلا بعد وصوله حالة البلوغ، هناك فقط نستطيع التحقق من وجود أو عدم وجود الجاهزية لدى الإنسان بالإنجاب، فهل يا ترى لو قمنا بفحص الإنسان قبل وصوله سن البلوغ، هل نستطيع تحديد توافر القدرة لديه بالإنجاب من عدمها؟ ثم، ألا يوجد هناك أناس ممن يستطيعون القيام بالممارسة الفعلية بالجماع، ولكن بالرغم من ذلك يبقى غير قادر على الإنجاب؟

وهنا يجب التمييز بين من يستطيع ممارسة الجماع ولكنه لا ينجب ومن لا يستطيع أصلاً الممارسة الفعلية للجماع. وهذا ينقلنا للخوض في جزئية أخرى تثيرها الآية القرآنية نفسها وهي قول الحق:

- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 50]

فما دلالات هذه الجزئية؟ وكيف ترتبط بقضية العقم؟

⇐ **السؤال**: ما معنى قول الحق: أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا

فالآية الكريمة تتحدث عن الزواج بين الذكر والأنثى، أليس كذلك؟ فهل - يا ترى- يوجد زواج لا يكون بين ذكر وأنثى؟ إننا نظن أن فهم هذه الإشكالية ربما توصلنا إلى فهم ماهية العقم، أي كيف يكون البعض عقيماً. ولكن كيف؟

**رأينا**: ربما يجد المدقق في الآية 50 أنها تتحدث عن التقابل بين العقم وشيء آخر:

- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 50]

ففكرة العقم واضحة في قوله تعالى: وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ، أليس كذلك؟

ولكن ما هي فكرة " أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ؟

إننا نود القول أننا نفهم الآية الكريمة على النحو التالي: أن الإنجاب لا يتم إلا بالزواج الذي يحصل بين ذكر وأنثى، وإن لم يكن الزواج بين ذكر وأنثى يستحيل عندها حصول الإنجاب. فالعقم ينتج عن الزواج الذي لا يتم بين ذكر وأنثى.

يا الله! ما هذه العبقرية!! لابد للزواج أن يكون بين ذكر وأنثى!! يا للعجب!!

ولكن هل هناك زواج يقع على غير تلك الشاكلة؟ هل تهذي يا رجل؟!

نعم، هناك زواج لا يكون على تلك الشاكلة، ولكن قبل تجلية هذا الأمر نرى لزاماً التأكيد على أنني رجل (ذكر) مفتون بدقة الألفاظ، وربما أكون مفطورا على حب التمييز بين الألفاظ المتقاربة (أو Synonyms باللسان الأعجمي)، وإنني على يقين بأن إشكالية فهم النص القرآني غالباً ما نبعت من خلط الألفاظ المتقاربة، ولا أجد أننا بحاجة إلى شيء أكثر من قراءة النص القرآني بتأني للوقوف عند ألفاظه كما يقصدها مفصل هذا الكتاب وهو الإله نفسه، لا كما نحب أن نفهما نحن، لأن فهمنا غالباً ما يشوبه النقص

والتحريف والتأويل الذي لا ضرورة له، وهنا سأخرج قليلاً عن الموضوع الرئيسي لتقديم مثال على أن عدم الدقة في تفصيل الألفاظ غالباً ما تعيق الفهم وتحجب رؤية الأشياء على حقيقتها

## استراحة قصيرة: لماذا أخفقت أنا في فهم علم الرياضيات؟

لعل من أوضح عيوبي التحصيلية عبر رحلتي التعلّميّة في المدرسة والجامعة هو إخفاقي الفاضح في التحصيل الرياضي، فقد كنت من أفقر الطلاب علماً بالرياضيات، العلم الذي يحتاج إلى العقول الكبيرة لفهمه (كما يؤكد أهل الدراية)، وهو بالطبع ما ينقصني!

ولكن بالرغم من إدراكي قصور قدرتي العقلية عن فهم مثل هذا العلم المجرد الذي يميّز أصحاب العقول الكبيرة إلاّ أنني لا زلت مقتنعاً (وإن كنت مخطئاً) أن سببا آخر ساهم بشكل كبير في إخفاقي الشنيع ذاك، ألا وهو: إخفاق كتب ومدرسي علم الرياضيات في استخدام المفردات الصحيحة في علمهم كما ينبغي. ولكن كيف؟

### قصة محزنة!

كنت لا زلت طالباً في الصف الأول الابتدائي ب (فحظي السيئ غالباً ما كان ينتهي بي في تلك الشعبة التي لا زلت أكرهها) عندما قدّم لنا معلم اللغة العربية درساً يهدف – حسب تقديري الآن- لتنمية قدراتنا الذهنية في التمييز بين حجم الأشياء، فكان - مما لا زلت أذكر من تلك السيناريوهات- تقديم المعلم صورة لسيارة كبيرة وأخرى صغيرة، ليفاجئنا بعد ذلك بالسؤال العبقري التالي:

⇐ أيهما أكبر السيارة الحمراء أم الصفراء؟

وفي الصفحة الثانية من الكتاب نجد صورة شجرة كبيرة وأخرى صغيرة، ليسألنا المعلم السؤال نفسه بمفردات جديدة:

⇐ أيهما أكبر شجرة التفاح أم شجرة البرتقال؟ وهكذا

وأقسم لكم – يا سادة- أني فهمت ذاك الدرس أيّما فهم، فأخذت أطبق مهارتي المكتسبة تلك في تمييز أحجام الأشياء على كل ما أرى في المدرسة والشارع وحتى البيت، وقد أعجبتني الفكرة حتى رحت أتساءل: لم يا ترى حجم أمي أكبر من حجم أبي؟ أليس هو الرجل وهي المرأة؟ ولم يكون بيت جيراننا أكبر من بيتنا؟ وهكذا.

وقد شططت في هذا الموضوع لدرجة أن مثل تلك التساؤلات أخذت تسبب لي بعض المشاكل، فقد أخذت أتساءل عن السبب في أن يكون زميلي حسين (أحد طلاب الصف) أكبر مني حجماً بالرغم أننا في صف واحد: هل ليكون هو أشد مني قوة، فإذا ما تعاركت معه صرعني على الأرض بلا عناء يذكر؟

فها هم زملائي في الصف والمدرسة يشكّلون فريق الرياضة، وغالباً ما يتم ذلك بناءً على أحجامهم وقدرتهم الجسمية، وكانت تتم تشكيلة الفريق على النحو التالي: يتقدم اثنين من زملائي الذين غالباً ما

يكونون الأكبر جسماً ليختار كل منهم فريقه من مجموع طلاب الصف لحصول المباراة بين الفريقين، واقسم لكم - يا سادة - أنه لم يحصل ولو مرة واحدة أن تم اختياري في أي من الفريقين، ولم أكن استطيع الاعتراض على عدم اختياري لان ذلك كان سينتهي بي على الأرض مطروحا (وربما مضرجاً بدمائي)، لينتهي بي المطاف في كل مرة إلى جانب الملعب متفرجاً متحسراً على عدم قدرتي أن أكون مثل زملائي، ومما لا شك فيه أن السبب في ذلك كان يتمثل في حجم جسمي الذي كان من أصغر الأحجام في الصف مقارنة بمعظم زملائي، وما كان يشاركني ذاك الهمّ إلا عدد قليل جداً من زملائي الطلاب الذين كنت أشكل معهم جلّ (إن لم يكن كل) جمهور المتفرجين على المباراة.

ولكن – يا سادة- أدرك الآن أن ذلك الوقت الذي كنت أقضيه متفرجاً على المباراة لم يذهب سدىً، ففي الوقت الذي كان زملائي يشبعون فيه رغبة أجسادهم في اللعب والحركة والتمتع بالرياضة، كنت أنا منشغل التفكير في حظي من الدنيا (جسم صغير لا يساعدني على منافسة معظم زملائي).

⇐ ولكن ما علاقة ذلك بدرس الرياضيات الذي لم تفلح فيه؟ يقاطعني البعض بالقول.

آه، لنعود إلى الموضوع بعد أن سردت عليكم جزءاً تراجيديا من طفولتي. المهم في الموضوع أنني - كما ترون- أصبحت أدرك وأفهم تماماً درس الأحجام (وربما أهميتها)، واستمرت الصورة على تلك الشاكلة حتى وصلنا إلى الصف الرابع (ب طبعاً) عندما قدّم لنا معلم الرياضيات واحدة من دروسه الأولى في الرياضيات المعاصرة (وعلى وجه التحديد علم الحساب arthematic)، فكان من أهم ما أربكني في ذاك الدرس اللعين هو استخدام الرموز الرياضية التالية:

> (أكبر)
< (أصغر)
≥ (أكبر أو يساو)
≤ (أصغر أو يساو)

وأظن (إن لم أكن مخطئاً) أنّ المعلم قدّم هذه الرموز على تلك الشاكلة ، وبدأ المعلم يشرح لنا الفائدة المرجوة من استخدام هذه الرموز الرياضية، فكان من أول الأمثلة التي قدّمها لنا لنفهم كيفية استخدام هذه الإشارات الرياضية المثال التالي:

$3 > 2$

وبيّن لنا كيف نقرأ هذه الصيغة الرياضة باللغة العربية فقال: نقرأ هذه العبارة على النحو التالي (مشيراً بيده إلى الرمز الجديد):

**ثلاثة أكبر من اثنين**

وفي هذه اللحظة حصلت الكارثة التي أدت بي إلى نبذ علم الرياضيات كله، وكانت القصة على النحو التالي:

عندما أكدّ لنا المعلم أكثر من مرة (ربما لينخرها في عقولنا حتى ولو لم نفهمها، كما يفعل المعلمون على الدوام) أننا نقرأها على نحو ثلاثة أكبر من اثنين، ما كان مني إلا أن اعترضت على ذاك الكلام فجأة دونما تردد ولو للحظة واحدة، فرفعت يدي وقلت للمعلم: "لا الثلاثة مش أكبر من الاثنين" باللهجة المحكية. فما كان من المعلم إلا أن نظر إليّ نظرة التي لا تخلو من الفوقية والطبقية ولا ينقصها الازدراء والتحقير قائلاً: "ماذا تقول يا ولد؟ أو شو بتقول يا ولد؟ ليستطرد بعدها بلا توقف بسيل من الأسئلة تفضي جميعها إلى حقيقة واحدة وهي أنني لا أستحق أن أكون طالباً في الصف الرابع الابتدائي (بغض النظر عن الشعبة)، فكان مما قال: ألا تستطيع أن تفهم أن الثلاثة أكبر من الاثنين؟ كيف لي أن أبسّطها لك أكثر من ذلك؟ هل فعلاً أنت طالب بالصف الرابع؟ لا بد أن تعود إلى الصف الأول لتتدرب على الأعداد، ...الخ. لينفجر الصف بأكمله عندها بالضحك الذي لم يخلو من رائحة الازدراء والتهكم أيضاً. فما كان مني إلا أن سكتّ ووجهي يحمرّ خجلاً من نفسي ومن زملائي، ولم أستطع في تلك اللحظة أن أعبر عن ما كان يجول في خاطري، لأصبح بعدها محل سخرية من زملائي الذين أدركوا منذ تلك اللحظة أنني لا يمكن أن أفلح يوماً في علم الرياضيات، العلم الذي كرهته لكرهي لمعلمي الذي أذلني أما زملائي، ولم يمنحني الفرصة للتعبير عن ما جال في خاطري في تلك اللحظة. فلسان حالهم كان يقول: كيف ستفهم الرياضيات المعاصرة مادام أنك لم تستطع أن تفهم بأن الثلاثة أكبر من الاثنين؟

ولكني لمّا حرمت التعبير عنها أمام الصف لمعلمي أولاً ولزملائي ثانياً، فإني سأحاول التعبير عنها الآن علّ ذلك الخزي والعار الذي لحق بي سنوات وسنوات لجهلي الفاضح بعلم الرياضيات لا يبقي يطاردني خصوصاً أمام زملائي الذين أصبح معظمهم من حملة الشهادات العليا في العلوم الطبيعية، وانتهي بي الأمر أنا في العلوم الإنسانية (وعلم اللغة على وجه التحديد).

لقد كانت فكرتي يا سادة على النحو التالي:

معلمي يقول أن 3 أكبر من 2، ولكن لننظر إلى المعادلة نفسها مرة أخرى:

$$2 < 3$$

وقد كتبها معلمي على السبورة بالطبشورة وبخط اليد، لذا لا يمكن أن تكون يده دقيقة في رسم الأرقام كدقة الكمبيوتر هنا، ولكن لننظر جيداً إلى المعادلة كما هي مكتوبة الآن على شاشة الكمبيوتر: هل فعلاً 3 أكبر من 2؟ كلا، وألف كلا، إنهما نفس الحجم، أليس كذلك؟ فأنا لم ولن أنسى درس الأحجام الذي تدربنا عليه باستخدام صورة السيارة الحمراء والصفراء، وشجرة البرتقال والتفاح. هل تذكرون؟

ثم ماذا لو كتبت أنا المعادلة على النحو التالي:

$$2 < 3 \;؟$$

هل تصبح 3 أكبر من الاثنين أم تكون 2 أكبر من 3 ؟ تأمل الحجم جيداً، أليس 2 أكبر حجماً من 3، كيف بمعلمي يقول إذاً أن 3 أكبر من 2؟

ألا ترون - يا سادة- أن كتب الرياضيات ومعلمي الرياضيات لا يزالون يقعون في الخطأ نفسه منذ ولادة علم الحساب في لغة الضاد؟ لا أعتقد أن وزارة التربية المعاقة بتفكيرها وعدد لا بأس فيه من كادرها وعلى رأسهم ... تستطيع أن تتجنب أخطاءً قاتلة مثل هذا الخطأ، لقد كان سبب فشلي في فهم الرياضيات هو أنهم لم يكونوا يستخدمون اللغة بالدقة المطلوبة، كان الأولى بمعلمي أن يفهم أن 3 ليست أكبر من 2، ولكنها أكثر من اثنين، فبدل أن يقرأ المعادلة على نحو

$3 > 2$ (3 أكبر من 2)

كان الأولى به أن يقرأها على النحو التالي:

$3 > 2$ (3 أكثر من 2)

وذلك لأن الرقم 3 هو عبارة عن ( | | | ) بينما الرقم 2 هو عبارة عن ( | | )، والعلاقة بينهما ليست علاقة حجم (أكبر أو أصغر) وإنما هي علاقة كمية (أكثر أو أقل).

أقسم لكم - يا سادة- أنه ربما لولا تلك الحادثة المخجلة المحرجة لي في ذلك الوقت، المخجلة المخزية لمعلمي الرياضيات ولوزارة التربية في كل وقت وحين إلى أن يتم تصحيح الخطأ، لربما كنت اليوم نطّاساً بارعاً (ولو أني لا أعرف حتى اللحظة من هو النطاس)، أو مهندساً ماهراً يفتخر بمهنته بدل أن أكون قابعاً في هذا المكتب أنبش في الفرق بين أكبر وأكثر. ولأصبحت من نوابغ زماني، ولكن تلك الأفهام المغلوطة التي نخرتها وزارة التجهيل في عقولنا هي السبب في هذا التخلف الذي لا زلت أعاني منه، ولا أجد أني أفلح في شيء إلا بقدر ما استطيع التفلت من تلك الأفهام المغلوطة، وخصوصاً في فهم ألفاظ الكتاب الكريم الذي خلطوا متشابهه بمحكمه فضاعت المعاني وتشتت الأفهام.

**وقد يقول صاحبنا**: ما الذي نستفيده من التمييز بين أكبر وأكثر؟

فنرد عليه بما يلي:

هل نستطيع أن نقول الله أكبر؟

⇐ نعم نستطيع.

ولكن هل نستطيع أن نقول الله أكثر؟

⇐ لا، لا نستطيع ذلك.

لماذا؟ ما الفرق بين أن تقول الله أكبر أو أن تقول الله أكثر؟

لأن الله واحد، فإن قلنا الله أكبر، فذاك لا يعني التعدد، ولكن إن قلنا الله أكثر فذاك يدل على التعدد، أي أنّ هناك آلهة كثيرة. لذا - عزيزي القارئ- إنني أود القول أن الأمة التي لا تستطيع أن تميز بين

أكبر وأكثر هي أمة لا تستطيع أن تميز بين الشرك والتوحيد. ولا أظن أن هذا أمر بسيط (وسنتعرض لتبعات هذا الظن في مقالاتنا مفصلة بحول من الله وتوفيق منه).

---

**لذا فالله أسأل أن يأذن لنا الإحاطة بشئ من علمه إنه هو السميع المجيب**

---

وبعد هذا المثال المخجل نعود إلى صلب الموضوع لنفهم قول الحق

- ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ ... ٥٠﴾ [الشورى: 50]

ولكن الشرط المسبق لحصول الفهم (إن نحن طلبناه حقاً) هو الوقوف عند الألفاظ كما هي، فلا نستخدم أكبر محل أكثر أو العكس. وبهذا المنطق نفسه فإننا بحاجة إلى الوقوف على معاني المفردات في الآية الكريمة وقوفاً ملياً خصوصاً ألفاظ مثل_ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗا، علّنا نخرج – بحول الله وتوفيقه – بأفهام توصلنا إلى مبتغانا في فهم ماهية العقم.

أما بعد،

**أولا**، ليس شرطاً أن ينتج عن الزواج مواليد

إننا نعلم كما نرى من واقع الناس أنه ربما يقع الزواج الذي لا ينتج عنه إنجاب الأطفال، وليس أدل على ذلك مما ورد في قول الحق في الآية الكريمة التالية:

- ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ٥٤﴾ [الدخان: 54]

فبالرغم من حصول الزواج بالحور العين، لكنني لا أظن أن ينتج عن ذلك الزواج مواليد، فعلاقة الزواج بين أهل الجنة والحور العين لن يتمخض عنها مواليد، ولكنها بنص مفردات القرآن الكريم هي علاقة زواج بدليل قوله تعالى " وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ "

ثانياً، إن من أهم مكونات الزواج هو وقوع الجماع (أو المباشرة الجنسية التي ربما ينتج عنها الإنجاب)، ولكن الملفت للنظر أن الذي يقع في الأصل بين الرجل والمرأة قد يحصل كذلك بين الرجل والرجل، وليس أدل على ذلك مما كان يفعل آل لوط:

- ﴿أَتَأۡتُونَ ٱلذُّكۡرَانَ مِنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٌ عَادُونَ ١٦٦﴾ [الشعراء: 165-166]

فحصول الجماع يحدث بوجود الذكر فقط.، ولكن الملفت للانتباه أن القرآن الكريم لا يسمي هذه العلاقة زواجاً، فحتى يسمى زواجاً لا بد من نشوء العلاقة بين الذكر مع الأنثى:

- ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾﴾ [النجم: 45]

فلفظة الزواج لا ترد إذا حصل جماع بين رجل ورجل، فذاك يسمى بنص القرآن الكريم إتيان:

- ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأعراف: 81]
- ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: 165-166]
- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [النمل: 54]
- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [النمل: 55]
- ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت: 28]
- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: 29]

**ثالثاً**، لا يمكن أن يتم جماع بين أنثى وأنثى، لذا لا نجد مثل هذا التوصيف في كتاب الله، فالأنثى ليست مزودة بأداة الجماع.

**رابعاً**، إننا نزعم الفهم أن الزواج هو المعاشرة الفعلية بالجماع، أما إذا لم تحصل المعاشرة بالجماع فذاك يسمى نكاحاً:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾ [الأحزاب: 49]

والآن لنعد بعد هذا الاستطراد إلى الآية الكريمة التي هي في لب بحثنا هذا وهي:

- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ ... ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 50]

فالله يقر أن الزواج هو الذي يتم بين الذكر من جهة والأنثى من جهة أخرى، وهو ما نظن أنه الزواج الذي يمكن ينتج عنه الإنجاب، ويظهر هذا الفهم جلياً في قوله تعالى:

- ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾﴾ [الرعد: 8]

فالأنثى هي بنص القرآن من لديها القدرة على الحمل، ولكن يبرز التساؤل هنا على النحو التالي: هل كل نساء الأرض لديهن القدرة على الحمل في أرحامهن؟

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾﴾ [لقمان: 34]

- ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨﴾ [الرعد: 8]

**الجواب**: كلا، فهناك نساء كثر ليس لديهن القدرة على الحمل. والحالة هذه فإننا نجد لزاماً التفريق بين مفردة الأنثى من جهة ومفردة النساء (أو المرأة) من جهة أخرى، لذا جاء قول الحق عند الحديث عن مجموع النساء التي لديها القدرة على الإنجاب والتي ليس لديها القدرة على الإنجاب على النحو التالي:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ۝١﴾ [النساء: 1]

**افتراء من عند أنفسنا**: إننا نزعم الفهم أن المرأة القادرة على الإنجاب هي أنثى بينما المرأة غير القادرة على الإنجاب هي من النساء ولكنها ليست بأنثى.

وبالمقابل فإن الزوج القادر على الإنجاب وغير القادر على الإنجاب هو في نهاية المطاف رجل، ولكن القادر على الإنجاب فقط هو ذكر، لذا فإن سيناريوهات المواقعة الجنسية هي على النحو التالي:

1. الإتيان (بين ذكر وذكر)
2. زواج الإنجاب ويكون بين ذكر وأنثى (الرجل ينجب والأنثى تنجب)
3. زواج العقم، فينتج عن الزواج بين
   أ. ذكر وامرأة ليست بأنثى (أي أن الرجل قادر على الإنجاب بينما المرأة غير قادرة على الإنجاب)
   ب. أنثى ورجل ليس بذكر (المرأة تنجب بينما الرجل لا ينجب)
   ج. رجل ليس بذكر وامرأة ليست بأنثى (الرجل لا ينجب والمرأة لا تنجب كذلك)

وعند ربط هذا الكلام عن مفردة الذكر والأنثى ببقية مفردات الآية الكريمة نفسها التي تتحدث عن حصول المشيئة بالعقم في قوله تعالى:

- ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ... ۝٥٠﴾ [الشورى: 50]

فإننا نخلص إل السيناريوهات التالية

**زواج ينتهي بالإنجاب**

1. الرجل لدية المشيئة بالإنجاب والمرأة لديها المشيئة بالإنجاب كذلك.

**زواج ينتهي بالعقم فيكون في واحدة في الحالات التالية:**

1. المرأة لديها المشيئة بالإنجاب بينما لا يكون لدى الرجل المشيئة بالإنجاب (زواج زكريا)
2. الرجل لديه المشيئة بالإنجاب بينما لا يكون لدى المرأة المشيئة بالإنجاب (زواج إبراهيم وسارة)
3. الرجل ليس لديه المشيئة بالإنجاب والمرأة ليس لديها المشيئة بالإنجاب. (زواج فرعون)

ولمّا كان العقم هو محط بحثنا هذا، فلابد من تسليط الضوء على سيناريوهات العقم الثلاث هذه، لتقديم الدليل الدامغ من كتاب الله على احتمالية الشفاء، وحصول الذرية، ولا نجد أفضل من أمثلة الكتاب الكريم نفسه للتحقق من زعمنا هذا، لذا فإننا سننبش في كل واحدة من هذه السيناريوهات الخاصة بحياة الأنبياء وأشخاص آخرون تحدث عنهم القرآن الكريم بالتفصيل اللازم.

1. **الزواج بين رجل (ليس بذكر) وامرأة أنثى**

إن مثالنا الذي نسوقه على العقم الذي سببه الزوج وليس الزوجة هو مثال زكريا عليه السلام، فنحن نزعم الفهم أن الخلل (أو العقم) الذي عانى منه زكريا عليه السلام كان سببه زكريا نفسه، ولم يكن لزوجته دخل فيه. وسنحاول إثبات صحة زعمنا هذا من الكتاب نفسه، فالقراءة المنضبطة لآيات الكتاب الكريم المتعلقة بهذا الموضوع تشير بما لا يدع مجالاً للشك أن العقم الذي عانى منه زكريا قسطاً من الزمن كان سببه أن زكريا كان زوجاً (رجلاً) ولكنه لم يكن ذكرا. ولكن كيف؟

أما بعد،

فقد تطرقنا في مقالة سابقة لنا (صلاة الاستسقاء 4) إلى الآية الكريمة التالية التي غالباً ما فهمت – حسب ظننا- بطريقة خاطئة،:

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5]

لذا لم نستطع الخروج بالكثير من العبر والدروس المستفادة بسبب الفهم المغلوط للآية، ولمّا كان هدفنا هو فهم آلية العقم وسببه وطرق الخلاص منه، كان لزاماً التطرق إلى هذه الآية الكريمة علّنا – بحول الله- نوفق إلى تصحيح الأفهام.

لقد كان الغلط في الفهم يتمثل –في نظرنا- بالزعم أن زكريا يبين أن سبب العقم هو في زوجته، وكانت حجتهم في ذلك يتمثل بما جاء على لسان زكريا في قوله "وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا"، فظن الكثيرون أن هذا يعني أن زوجة زكريا ربما كانت سبباً في ذاك العقم الذي عانى منه الرجل سنين طوال، وقد أثرنا في مقالتنا السابقة عدة تساؤلات حول مثل هذا الفهم المغلوط، ونحن نجد لزاما هنا إعادة بعض تلك التساؤلات، فقد كان جل البحث ينصب حول سؤال واحد ألا وهو: إن كان ما قالوا صحيحاً، فكيف علم زكريا أن زوجته لا تنجب؟

## إعادة للأفكار التي طرحت حول هذه المعضلة سابقاً

كيف علم زكريا أن زوجته هي سبب العقم؟ لابد إذاً من طريقة تبين لزكريا أن العقم يكمن في زوجته وليس فيه شخصياً، فهل جرّب زكريا ذلك مع نساء أخريات؟ هل كان زكريا متزوجا من أخريات؟ فلو حصل ذلك وكان العقم في زوجته وليس فيه، لتحصلت له الذرية من تلك النساء ولما كان أصلاً بحاجة أن يطلب ذلك من ربه؟

**وقد يرد البعض بالقول**: لربما أن عادة المجتمعات القديمة أن تنسب العقم للمرأة وليس للرجل؟ فنقول هذا جواب جيد لو لم تكن شريعة تعدد الزوجات قائمة، ففي المجتمعات القديمة كانت حقيقة تعدد الزوجات قائمة مطبّقة على أرض الواقع، لذا لا يمكن أن يخدع الناس جميعاً بهذه الحجة، فلو كان العقم في الرجل وعدّد زوجاته، لبان الأمر بكل يسر و سهوله، فإن لم ينجب من واحدة لن ينجب من الأخرى، وهكذا. لذا لابد أن المجتمعات البشرية كانت تعرف أن احتمالية أن يكون العقم في الرجل هي احتمالية قائمة. فهذا سيناريو لا يمكن أن يغفل عنه نبي الله، ولا يمكن أن يتهم زوجته بما ليس فيها.

**وقد يرد آخر بالقول**: ربما أن زكريا يقول ذلك لأن زوجته قد تقدم بها العمر، لذا فهي عاقر، نقول هذا كلام أكثر وجاهة، ولكنّه يعاني من وجود دليل ينقضه تماماً في كتاب الله، فالمدقق في النص القرآني يجد أن زكريا لم يقل أن زوجته عاقر فقط:

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]

وإنما جاء قول الحق على لسان زكريا على النحو التالي أيضاً:

- ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾﴾ [مريم: 5]

فالمدقق باللفظ يجد أن زكريا لا يتحدث عن حال زوجته الآن بعد أن بلغت من الكبر ما بلغت فقط كما في الآية 40 من آل عمران، وإنما يتحدث عن ماضيها بدليل " وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا "، كما في الآية 5 من مريم، فهو إذاً يسرد تاريخها الماضي بالإضافة إلى حقيقتها الحالية، وبكلمات أكثر دقة نقول: ويكأن زكريا يقول لقد كانت زوجتي حتى قبل هذا الوقت عاقراً (وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا)، وهي لا زالت حتى هذه اللحظة عاقرا (وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ).

وهنا نواجه سؤالاً آخر لا مفر منه وهو: إذا كان زكريا يعرف أنّ العقم يكمن في زوجته وليس فيه شخصياً، فلم إذاً لم يتزوج بغيرها فينجب منها ما دام أنها هي (وليس هو) سبب العقم؟

فهل فعلاً تزوج زكريا بأخريات؟ الجواب كلا، وذلك لأن زكريا لم يتحدث إلاً عن زوجة واحدة:

- وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا

وجاء قول الحق مؤكداً ذلك:

- ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 90]

ولكن هل كان لزكريا جواري وأنجبن منه ولكنه لم ينجب من زوجته؟ كلا، لأن زكريا قد قال بملء فيه أنه كان يخاف الموالي من وراءه، ونحن نفهم من صريح اللفظ القرآني أنّ الموالي ليسوا بكل تأكيد من ذرية الرجل، قال تعالى:

- ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمۡ تَعۡلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمۡۚ وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ۝٥﴾ [الأحزاب: 5]

فمن لم تعرف من هو أبوه يكون أخوك في الدين أو مولاك، فلا يمكن أن يكون الموالي من ذرية زكريا، وإنما هم ممن كان يتخذهم زكريا في رعايته وممن لا يعرف من هم آباؤهم. فلقد عُرِف عن زكريا كفالته الأيتام، وليس أدل على ذلك من كفالته لمريم بنت عمران:

- ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾ [آل عمران: 37]

إذاً كيف عرف زكريا أن امرأته كانت هي سبب العقم؟

لقد توقفنا في مقالتنا السابقة عند هذا الحد، ولكننا وعدنا القارئ الكريم في الوقت ذاته أن نحاول الإجابة على هذا السؤال لاحقاً، وها نحن نعود الآن إلى الموضوع ذاته لنقدم لكم ما فتح الله علينا فيه. فالله أسأل أن يعلمنا قول الحق فلا نفتري عليه الكذب إنه هو السميع المجيب.

أما بعد،

إننا نظن أن الخطأ في الفهم قد نبع من التحليل المغلوط للنص القرآني " وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٞ " ول" وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا "، ونحن نزعم أن هذه العبارة لا علاقة لها بالعقم إطلاقاً، فهي لا تعني بأي حال من الأحوال أن زكريا يشير إلى أن زوجته كانت غير قادرة على الإنجاب، ولكنها تعني أن زوجته كانت عَاقِرٗا، وكفى. ولكن كيف؟

**السؤال**: ما الذي يمكن أن نفهمه من قول زكريا " وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرٗا "؟

**جواب مفترى من عند أنفسنا**: إن كلام زكريا يعني – في ظننا- أن زوجته كانت قادرة على الإنجاب (فهي إذاً أنثى) ولكن زكريا لم يكن قادراً على الإنجاب (لأنه رجل ليس بذكر)، فكان ذلك سبب عقور زوجته.

ولكن أين الدليل على هذا الكلام؟

أما بعد،

## الفرق بين العاقر والعقيم

لقد ورد في مكان آخر من كتاب الله على لسان زوجة إبراهيم عليه السلام قوله تعالى:

- ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ [الذاريات: 29]

وهنا تظهر مفردة "عقيم" لتتحدث عن المرأة التي لا تنجب، فامرأة إبراهيم كانت إذاً عقيم (امرأة متزوجة ولكنها ليست بأنثى). وهنا يثار التساؤل التالي: كيف يمكن أن نميز بين امرأة زكريا (التي كانت عاقرا) وامرأة إبراهيم (التي كانت عقيم)؟

**رأينا**: نحن نظن أن الدقة تستدعي أولاً التميز بين المرأة العقيم كزوجة إبراهيم، والمرأة العاقر كزوجة زكريا، ونحن نظن أن الغلط قد وقع في الخلط بين اللفظين، فحمل أحداهما بمحمل الآخر، فضاع المعنى وتشتت الأفهام. لذا فإننا ندعو للوقوف على معنى كل واحدة منهما من جديد

### العقيم

لاشك أن العقم هو عدم الإنجاب، فإن قلنا أن هذا الرجل عقيم أو تلك المرأة عقيم، فهذا يعني أنه أو أنها لا تنجب، فقد قال الله عن الريح التي أرسلها على قوم عاد ليعذبهم بها بأنها ريح عقيم:

- ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ۝٤٢﴾ [الذاريات: 41-42]

فنحن نفهم أن الريح إذا أرسلت جاء معها المطر الذي يسبب خروج النبات (الإنجاب)، أما تلك الريح فقد كانت مختلفة، لأنها لم يكن لينتج عنها الزرع أو الثمر، فقد كانت إذاً ريحاً عقيما. وكذلك هو عذاب يوم الحساب الذي لن ينتج عنه خير للكافرين:

- ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج: 55]

فالشجرة أو الريح أو الرجل أو المرأة التي لا تنجب فهي إذاً عقيم.

### العاقر

ولكن ما العاقر؟

**افتراء من عند أنفسنا**: إننا نظن أن العقر هو مس الشيء بالسوء، فها هم ثمود (قوم صالح) يأمرهم الله أن لا يمسوا الناقة بسوء لكي لا يقع عليهم العذاب، فما كان منهم إلا أن عقروها، فأخذهم عذاب يوم عظيم.

- ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾ [الأعراف: 77]

- ﴿وَيَٰقَوۡمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمۡ ءَايَةٗۖ فَذَرُوهَا تَأۡكُلۡ فِيٓ أَرۡضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابٞ قَرِيبٞ ٦٤ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمۡ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٖۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ٦٥﴾ [هود: 64-65]
- ﴿قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥٦ فَعَقَرُوهَا فَأَصۡبَحُواْ نَٰدِمِينَ ١٥٧﴾ [الشعراء: 155-157]
- ﴿إِنَّا مُرۡسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتۡنَةٗ لَّهُمۡ فَٱرۡتَقِبۡهُمۡ وَٱصۡطَبِرۡ ٢٧ وَنَبِّئۡهُمۡ أَنَّ ٱلۡمَآءَ قِسۡمَةُۢ بَيۡنَهُمۡۖ كُلُّ شِرۡبٖ مُّحۡتَضَرٞ ٢٨ فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ٢٩﴾ [القمر: 27-29]
- ﴿فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَٰهَا ١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ١٥﴾ [الشمس: 13-15]

---

**النتيجة: القوم هم من عقروا الناقة، فكانت الناقة هي المعقورة (اسم المفعول كما يحب أهل اللغة أن يفهموه) وكان القوم هم من قام بفعل العقر (أسم الفاعل: عاقر).**

---

لذا فعندما قال زكريا أن امرأته كانت عاقر لم يكن يعني – في ظننا- أنها لم تكن تنجب، وإنما كان يتحدث عن سلوكها الاجتماعي حتى تلك اللحظة، فقد كانت امرأة تمس زوجها (وربما وغيره) بالسوء، فهي امرأة ذات أخلاق غير حميدة، لذا كانت النعمة الربانية على زكريا لا تتمثل فقط في أن الله قد استجاب له دعوته فوهب له الذرية على الكبر:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ ... ٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

بل منّ الله على زكريا بأن أصلح له زوجه:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ وَأَصۡلَحۡنَا لَهُۥ زَوۡجَهُۥٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ٩٠﴾ [الأنبياء: 90]

فصلاح زوجته كان يتمثل بأن توقفت تلك المرأة عن "عقورها"، فما عادت تمس زوجها (ولا غيره) بالسوء.

ولعل هذا الفهم على علاّته قد يحل لغز التساؤل التالي: لماذا لم يتزوج زكريا بامرأة أخرى (إذا كانت زوجته لا تنجب) وعلى ذاك السوء من الأخلاق؟

⇐ الجواب: لأن زكريا لم يكن ذكرا

وهنا يطرح سؤال آخر: لماذا كانت زوجته أصلاً عاقرا؟

⇐ الجواب: لأن زكريا لم يكن ذكرا

لماذا صلح حال زوجته؟

⇐ الجواب، لأن زكريا أصبح ذكراً قادراً على الإنجاب.

نعم، إننا نزعم الفهم أن زكريا كان متزوجاً من امرأة عاقر (تسيء لزوجها وربما لغيره وسنرى لاحقاً أن جزءا من عقور امرأته كان بسبب تكفله لمريم) ، ولا أظن أن ذلك كان جزءاً من طبعها عندما تزوجها زكريا، فذاك رجل لا شك يعرف كيف يختار زوجته، ولا أظن أنه قد اختار زوجة من شرار الناس، ولكن بعد أن تزوجها زكريا قسطاً من الزمن، وبان لها أنه لم يكن قادراً على القيام بواجباته الزوجية في المعاشرة، ومن ثم انشغاله بكفالة الأيتام وخاصة مريم، ربما دفع المرأة أن تسوء أخلاقها ومعاملتها معه.

وبكلمات أخرى نقول يكن الرجل قادراً على معاشرة امرأته كما يجب، وكان يعوض على ذلك بكفالته للأيتام، والحالة هذه، لم تطق تلك المرأة ذاك النوع من الحياة، فما كان منها إلا أن أصبحت امرأة عاقرا، وبقيت على تلك الشاكلة حتى اللحظة التي دعا فيها زكريا ربه فاستجاب له طلبه، فأصبح زكريا رجلاً ذكرا قادراً على تلبية حاجات ورغبات زوجته في المعاشرة والإنجاب، فأصلح الله حالها، وأصبحت ممن تسارع في الخيرات بعد أن كانت ممن تمس الناس بالسوء (أي عاقرا).

أما الدليل الثاني الذي نسوقه لنثبت صحة ما نزعم فيأتي من صيغة دعا زكريا ربه:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ ... ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 90]

فالمدقق في اللفظ القرآني يجد أن الهبة من الله كما ذكرنا عند حديثنا عن قوله تعالى "يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ" جاءت بصيغة المفرد المخصص لزكريا نفسه، فهذا يدعونا لنثير التساؤل التالي: لم لم يقل الله تعالى:

**فاستجبنا له ووهبنا لهم يحيى**

بصيغة الجمع؟ ألم يكن يحيى ولد زكريا وزوجه؟ فكيف يصبح يحيى هبة من الله لزكريا فقط؟ لم لا يكون هبة من الله لزوجة زكريا كذلك؟

رأينا: إن هذا يدلنا أنّ زوجة زكريا لم تكن تعاني من العقم، فهي كانت امرأة منجبة، وكان الخلل خاصا بزوجها. فيحيى هو إذاً هبة من الله لزكريا نفسه.

ما علاقة ذلك بمشيئة العقم؟

لقد ذكرنا سابقاً أن التحول من حالة اللاعقم إلى حالة العقم يتطلب تغيير ما في النفس مصداقاً لقوله تعالى:

- ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ ... ﴿١١﴾﴾ [الرعد: 11]

ولكن من الذي سيغير ما في نفسه؟

لا شك أن زوجة زكريا لم تكن بحاجة أن تغير ما في نفسها لكي تنجب، وذلك لأن مشيئتها بالإنجاب كانت متوافرة على الدوام، ولكن الخلل كان يكمن في زكريا فقط، لذا فعندما غيّر زكريا ما في نفسه وتوجه إلى الله طالباً الذرية الطيبة، استجاب الله له طلبه، فجاء قول الحق مفرداً زكريا دون زوجه:

- ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ يَحۡيَىٰ ... ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: 90]

فلو كان تغير ما في النفس قد وقع من زكريا ومن زوجه، لجاء قول الحق على نحو:

**فاستجبنا لهم ووهبنا لهم**

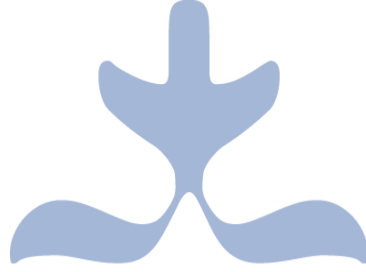
ولكن لمّا كان التغيير خاصاً بزكريا وحده، جاء التعبير القرآني بصيغة المفرد لتبين الدقة والحكمة في ذلك.

---

**إننا نخلص إلى النتيجة التالية: إذا كان الرجل هو سبب العقم، فلا يمكن أن يحدث الإنجاب إلا بعد أن تتوافر المشيئة لدى الرجل بالإنجاب وذلك بتغيير ما في نفسه، وأن تدخّل المرأة أو دعاءها بالإنجاب ربما لا يغيّر من الحال شيئاً ما دامت أنها ليست هي السبب في العقم، ولكن يصبح لزاما على المرأة أن تغيّر هي ما في نفسها إن كانت هي سبب العقم، وقد لا يسعف تدخّل الرجل في مثل هذه الحالة إن لم يكن هو سبب العقم، وسنقدم الدليل على هذا السيناريو الجديد باستعراض قصة إبراهيم وزوجه من هذا الجانب.**

---

وللحديث بقية



# صلاة الإستسقاء

# الجزء السابع



# صلاة الاستسقاء – الجزء السابع

تعرضنا في مقالتنا السابقة إلى قوله تعالى

- ﴿أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ ... ٥٠﴾ [الشورى: 50]

وخلصنا إلى أن الزواج الذي ستنتج عنه الذرية هو الزواج الذي يقع بين ذكر وأنثى، وأما إذا لم يحصل الزواج بين ذكر وأنثى فإن النتيجة ستكون العقم لا محالة، وعرضنا السيناريوهات الثلاث للعقم وهي على النحو التالي:

1. زواج يقع بين رجل (ليس بذكر) وامرأة أنثى، وفي هذه الحالة لا يكون لدى الرجل المشيئة بالإنجاب بينما تكون المشيئة بالإنجاب عند المرأة متوافرة (كزواج زكريا)
2. زواج يقع بين رجل ذكر وامرأة (ليست بأنثى) وفي هذه الحالة يكون الرجل لديه المشيئة بالإنجاب بينما لا يكون لدى المرأة المشيئة بالإنجاب (كزواج إبراهيم وسارة)
3. زواج يقع بين رجل (ليس بذكر) وامرأة (ليست بأنثى) وفي هذه الحالة لا يكون لدى الرجل المشيئة بالإنجاب والمرأة ليس لديها المشيئة بالإنجاب أيضاً (كزواج فرعون)

وتعرضنا في مقالتنا السابقة بشيء من التفصيل للسيناريو الأول وذلك بتقديم مثال زواج زكريا، وزعمنا الفهم أن العقم في حالة زكريا كان بسبب زكريا نفسه، ولم يكن لزوجته دخل فيه، وما تغيرت حال زكريا إلا بعد أن غيّر زكريا ما في نفسه. وسنتعرض للحالتين الأخريان بشيء من التفصيل، علنا نستطيع – بحول الله- الخروج بأفهام جديدة حول موضوع العقم.

## زواج إبراهيم وسارة

إننا نعلم أن زواج إبراهيم بسارة قد عانى من العقم قسطاً من الزمن، فلم ينتج عنه إنجاب إلا بعد أن بلغ إبراهيم سن الشيخوخة، مصداقاً لما جاء في كتاب الله على لسان زوجته العجوز:

- ﴿قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ٧٢﴾ [هود: 72]

فتحصل لهما إسحق كهبة من الله. ولكن لماذا تأخر الإنجاب حتى تقدم بهما السن؟ وكيف حدث؟

إننا نزعم الفهم أن العقم الذي كان سبباً في تأخر الإنجاب في ذلك الزواج كان مصدره الزوجة سارة ولم يكن لإبراهيم دخل فيه، وبمفرداتنا الجديدة فقد كان إذاً زواجاً بين رجل ذكر (قادر على الإنجاب) وامرأة ليست بأنثى (امرأة غير قادرة على الإنجاب)، وقد تحصل لنا هذا الفهم من مجموع الآيات ذات الصلة بالموضوع، نطرح أولها الآيات الكريمة التالية:

- ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ۝٣٠﴾ [الذاريات: 24-30]

إن أبسط ما يمكن أن نخرج به من هذا السياق القرآني هو اعتراف امرأة إبراهيم من نفسها أنها هي عجوز عقيم، وتعرضنا في مقالتنا السابقة إلى التمييز بين العقيم والعاقر، فامرأة إبراهيم كانت عقيم، لا تنجب، ولكنها لم تكن عاقرا، وهذا الطرح يثير التساؤل التالي: لم نسبت امرأة إبراهيم العقم لنفسها؟ ولِمَ لم تحمّل زوجها جزءً من المسؤولية في عدم الإنجاب؟

رأينا: إننا نفهم هذا من السياق الأوسع لقصة إبراهيم، فهو الذي كان قد رزق الذرية من امرأة أخرى، فقبل أن يرزق إبراهيم بغلام عليم من هذه العجوز العقيم كان قد رزق بغلام حليم من امرأة أخرى:

## البشرى بالغلام العليم (إسحق)

- ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ۝٥٥ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: 53-56]
- ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩﴾ [الذاريات: 28-29]

---

**نتيجة: فالغلام العليم (أي إسحق) هو ما تحصّل لإبراهيم من الذرية من هذه العجوز**

---

## البشرى بالغلام الحليم (إسماعيل)

- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٠٢ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝١٠٣ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ۝١٠٧ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٠٨ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ۝١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١١٠ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ۝١١١ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١١٢﴾ [الصافات: 100-112]

**نتيجة: فالغلام الحليم (إسماعيل) هو الذي ساقه أبوه للذبح، وهو الذي فُدي بذبح عظيم. صحيح أن ذلك تحصل له على الكبر ولكن مما لاشك فيه أن ذلك قد حصل قبل أن يبلغ سن الشيخوخة، لربما قد تحصل له ذلك وهو لم يزل فيه شيء من الذكورة، والمدقق في آخر هذا السياق القرآني يجد أن البشرى بإسحق قد جاءت بعد محنته التي تعرض لها عندما طلب منه أن يذبح ذاك الغلام الحليم (إسماعيل) الذي كان قد رزق به من ذي قبل.**

ولو راقبنا ردة فعل إبراهيم على بشرى الملائكة في الحالتين لوجدنا اختلافاً كبيرا، ففي حين لم يكن الاستغراب بادياً من إبراهيم يوم أن بشروه بالغلام الحليم:

- ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ... ۝١٠٢﴾ [الصافات: 100-102]

كان الاستغراب واضحاً في ردة فعل إبراهيم يوم أن بشروه بالغلام العليم:

- ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ [الحجر: 53-54]

ونحن هنا نتساءل عن سبب استغراب إبراهيم من هذه البشرى، إننا نظن أن السبب يكمن في أن إبراهيم لم يكن يشغله موضوع الذرية هذه المرة، ولكنه كان مشغول التفكير بهدف الزيارة التي تحصلت له من أولئك الرسل، لذا لم يعط إبراهيم البشرى كثير اهتمام، وصرف تفكيره إلى موضوع عذاب قوم لوط، وهذا جلي في الآيات الكريمة التالية (وربما نرى لاحقاً أن إبراهيم قد فهم من البشرى ما لم يفهمه غيره، ولم يكن مرحباً بها لأنها ستجلب له المحنة في قادم الأيام):

- ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ۝٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ۝٣٢﴾ [العنكبوت: 31-32]

فلم يجادل إبراهيم الملائكة في موضوع البشرى ولكنّه جادلهم في موضوع قوم لوط:

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٤﴾ [هود: 74]

**وهنا نثير التساؤل التالي**: لِمَ لَمْ يصرف إبراهيم تفكيره إلى موضوع البشرى؟ ولم لم يبد فرحه بها كما يجب؟

**الجواب**: لأن إبراهيم لم يكن عقيما، وقد تحصل له الذرية (الغلام الحليم) من ذي قبل، فقد جاء مولد إسحق نافلة (أي زيادة):

- ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةًۭ ۖ وَكُلًّۭا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأنبياء: 72]

ولكن لمّا كان إسحق نافلة لإبراهيم ولم يكن نافلة لامرأته سارة (فهي لم ترزق الذرية بعد)، فقد صرفت هي جل تفكيرها لهذا الموضوع، فأخذت تجادل الملائكة في موضوع البشرى، فمن يمعن التفكير في السياق الذي سبق جدال إبراهيم في قوم لوط، يجد الحوار الذي حصل بين رسل الله وامرأة إبراهيم واضحاً:

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَٰمًۭا ۖ قَالَ سَلَٰمٌۭ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍۢ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةًۭ ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍۢ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌۭ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌۭ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌۭ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌۭ مَّجِيدٌۭ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾﴾ [هود: 69-74]

فإبراهيم يجادل (يحاور) الملائكة في موضوع قوم لوط، بينما كان جل الحوار بين رسل الله وامرأة إبراهيم منصبّاً حول موضوع البشرى.

إننا نخلص إلى القول أن الإنسان يعطي اهتماماً أكبر للشيء الذي يخصه على وجه التحديد (أو الشيء الذي يشغل تفكيره)، فموضوع الذرية (الإنجاب) هو ما كان يشغل تفكير امرأة إبراهيم، بينما لم يكن ذلك من عظيم اهتمامات إبراهيم (على الأقل في ذاك الوقت بالذات)، بل على العكس تماماً، فلقد شكّك إبراهيم بأن خبر ولادة الطفل العليم هو بشرى له، فجاءت ردة فعله على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍۢ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر: 53-54]

فالمدقق في النص جيداً يجد وبكأن إبراهيم يقول للملائكة: وما دخلي أنا بهذا الأمر؟.

- ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر: 54]

إننا نظن أنه لو كان العقم مصدره إبراهيم نفسه لأعطى موضوع البشرى اهتماماً أكبر، ولظهر ذاك في ردة فعله، ولكن امرأته هي من أسرّها خبر البشرى، فانعكس ذلك في تصرفاتها وفي حوارها:

- ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌۭ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌۭ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌۭ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌۭ مَّجِيدٌۭ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: 71-73]

إن ردة فعل إبراهيم تلك تدلنا على أن إبراهيم لم يكن مضطراً لتغيير مشيئته في موضوع الإنجاب، ولكن زوجته هي من كانت بحاجة إلى ذلك، فردة فعلها تبين أنها كانت دائمة التفكير منشغلة البال بموضوع

الذرية، لذا جاءت ردة فعلها لتصور استغرابها لما ستحصل عليه مطابقا تماما لردة فعل زكريا يوم جاءته البشرى بالذرية، فبعد أن دعا زكريا ربه للحصول على الذرية الطيبة واستجاب الله طلبه، جاءت ردة فعله على النحو التالي:

- ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: 40]

وهكذا كانت ردة فعل زوجة إبراهيم:

- ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: 72]

إن هذا يدعونا إلى الاستنتاج أن العقم في حالة زكريا كان مصدره زكريا نفسه، أما العقم في حالة إبراهيم فكان بسبب امرأته، لذا جاءت ردة فعل زكريا وردة فعل امرأة إبراهيم متطابقة، لأنها ردة فعل المتلهف المحتاج، المبتهج بالخبر السعيد.

أما إبراهيم نفسه فقد استنكر أن يكون ذلك الخبر هو بشرى له فقد جاء رده على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الحجر: 53-54]

## زواج فرعون

أما السيناريو الثالث والأخير للعقم فهو الزواج الذي يحصل بين رجل (ليس بذكر) وامرأة (ليست بأنثى)، فيكون الطرفان سبباً في العقم، ولا يمكن أن يتحصل الإنجاب إلا يوم أن يغير الطرفان مشيئتهما، وسنقدم مثال فرعون على هذا النوع من العقم.

لقد تطرقنا في مقالة سابقة لنا إلى موضوع علاقة فرعون بامرأته (والقارئ الكريم مدعو لقراءة تلك المقالة تحت عنوان: من هي زوجة موسى). ولا نجد ضيراً أن نعيد هنا الملامح الرئيسة لتلك العلاقة ما دام أن الهدف هنا هو تسليط الضوء على هذه العلاقة من زاوية العقم- موضوع بحثنا هنا.

أما بعد،

فلقد زعمنا في مقالتنا تلك أن عقدة فرعون تمثلت في عدم ذكورته، فقد كان رجلاً لا يستطيع القيام بواجباته الزوجية في الفراش، لذا لم يكن له ذرية، وكان ذلك – حسب فهمنا- سبباً رئيسياً في نقمته وتجبره، وهو الأمر الذي كان فرعون يحاول التستر عليه، ولم يطّلع عليه إلا شخص واحد وهو امرأته. وقد قدمنا الأدلة التالية على زعمنا هذا.

1. قبول فرعون بفكرة التبني ونزوله عند رغبة زوجته (وإن خالفت رغبته ومصلحته)
2. لم يرد في القران الكريم أن لفرعون أهل أو بني ولكن ورد في القرآن أن لفرعون آل وقوم.

ولمّا كان الدليل الأول لا يحتاج إلى تبرير، فهو أمر معلوم بالضرورة للجميع، فإننا سنقف مليّا عند الدليل الثاني لنسوّقه بالحجة والدليل من كتاب الله. فلقد ذكرنا –في مواضع سابقة- أنّ أهل الرجل هم من يسكنون معه في بيت واحد، وأهل المدينة يسكنون في مكان واحد، وأهل السفينة يركبون جميعاً على ظهرها، ولكن السؤال البسيط الذي نثيره هنا في خضم حديثنا عن الحياة الشخصية لفرعون هو: لِمَ لَمْ يرد في كتاب الله أنّ لفرعون أهل بالرغم من معرفتنا أن فرعون كان رجلاً متزوجا؟

**الجواب**: إننا ندعي أنّ الرجل لا يكون له أهل إلاّ إذا كان له (بالإضافة لزوجته) ذرية من البنين والبنات:

- ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ۝٧﴾ [النمل: 7]
- ﴿قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ۝٧٣﴾ [هود: 73]
- ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ۝٣٣﴾ [الأحزاب: 33]

فلقد ركب نوح وأهله في السفينة ولم تكن امرأته معهم:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: 40]

ونجا لوط وأهله من العذاب ولم تنجو امرأته:

- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا ۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ ۝٣٣﴾ [العنكبوت: 33]

أما في حالة فرعون، فإذا ما استثنينا امرأته (وإن كانت على النقيض من امرأة نوح وامرأة لوط) فأين أهله؟

**رأينا**: نعم، لقد كان فرعون بلا أهل (أي بلا ذرية يقطنون في نفس البيت معه ومع امرأته)، ولهذا جاء طلب زوجة فرعون عندما وقع الغلام (موسى) في يدها على النحو التالي:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: 9]

فلم يرد فرعون طلبها على الرغم من شكّه (لا بل من يقينه) بأن الغلام من بني إسرائيل الذين كان يقتّل أبنائهم، وقد يقول قائل: كيف تزعم أنهم كانوا يعلمون أنّ الغلام من بني إسرائيل وهم قد وجدوه في اليم؟ فنقول أن ذلك واضح من الكلام الذي ورد على لسان امرأة فرعون، فلقد قالت المرأة " قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي

وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا"، فنحن نتساءل هنا عن سبب ورود عبارة "لَا تَقْتُلُوهُ"، أي لم اضطرت المرأة أن تقول لَا تَقْتُلُوهُ لو أنهم لم يهمّوا أصلاً بقتله؟ فلِمَ يهموا بقتله (لتتدخل هي وتنقذه من ذلك القتل بتدبير ربها) لو لم يكونوا على يقين أن الطفل من ذرية بني إسرائيل؟ فهل كان فرعون يقتل أطفالا من غير ذرية بني إسرائيل؟

**رأينا**: إن كلام امرأة فرعون هذا يبيّن لنا أنها هي نفسها تعلم أنّ الغلام من بني إسرائيل، فقالت "لَا تَقْتُلُوهُ" (وهو ما كان مصير أبناء بني إسرائيل على يد فرعون وآله)، فلو كان القوم غير موقنين أن الغلام من بني إسرائيل لما همّوا أصلاً بقتله ولربما جاء ردها على النحو التالي:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ ... عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾
[القصص: 9]

ولكنها "منعتهم من قتله" بقولها لهم " لَا تَقۡتُلُوهُ "، وأتبعت طلبها هذا بالحجج التالية:

⇐ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ
⇐ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا

فعندها سكت فرعون وألجم عن الرد، وما كان أحد من الملأ سيتجرأ على رفض طلبها بعد أن سكت فرعون نفسه وأُخرس، والسؤال هو لم استسلم الرجل- وأقصد فرعون- بهذه السهولة لطلب امرأته على الرغم من شدته المعهودة، وعلى الرغم من جدّيّة الأمر بالنسبة له ولمستقبله السياسي على أرض مصر؟ فيأتي الجواب – حسب ظننا- في قوله تعالى "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ".

فمن الذين كانوا لا يشعرون؟ وما المقصود بذلك؟

**رأينا**: إننا نعتقد أنه التهديد المبطن من الزوجة لزوجها دون علم الحاضرين. نعم، لقد هددت امرأة فرعون زوجها بما لا يشعر به الحاضرون، ولكن ماذا كان ذلك التهديد؟ فلنكرر ردها كاملاً لنتأمله بشيء من الدقة والرويّة:

- ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾ [القصص: 9]

لقد قالت للملأ أنْ يتركوا الغلام "موسى" فلا يقتلوه " عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ " وهنا وقف والتفاف، فهي- كزوجة فرعون إله المصريين في ذاك الزمان- لا تحتاج أن تبرر للملأ سبب عدم قتل الطفل، فيكفيها أن تأمرهم بأن لا يقتلوه وكفى، ولكنها بحاجة أن تبرر رغبتها في عدم قتل الطفل أمام شخص واحد وهو فرعون

نفسه، فالتفتت إلى زوجها وخاطبته دون أن يشعر الحاضرون بقولها " عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗا "، فسكت الرجل وما نطق، فلا نجد في كتاب الله رداً لفرعون على كلام امرأته.

ولكن لماذا؟ فلقد حدث الحوار بينها وبين زوجها دون معرفة الحاضرين من القوم، والدليل على ذلك قوله تعالى في الآية نفسها " وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ "، فها هي قصة النملة التي طلبت من بقية النمل الاختباء حتى لا يحطمهم جنود سليمان وهم لا يشعرون:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل: 18]

وها هو يوسف يتلقى البشرى من ربه بوجود إخوته ولكن "وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ":

- ﴿فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِۦ وَأَجۡمَعُوٓاْ أَن يَجۡعَلُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمۡرِهِمۡ هَٰذَا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٥﴾ [يوسف: 15]

وها هي أخت موسى نفسه تقص أثر أخيها (يوم ألقته أمه في اليم) وهم لا يشعرون:

- ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٠ وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ فَبَصُرَتۡ بِهِۦ عَن جُنُبٖ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١١﴾ [القصص: 10-11]

إننا نعتقد أنّ زوجة فرعون اختارت أن يكون ذلك حديثاً جانبياً مع زوجها دون سمع الحاضرين لأن الأمر غاية في الخصوصية: إنه ما يخص الحياة الزوجية، وهي العلاقة الجنسية بين المرأة وزوجها على وجه التحديد، فنحن نظن أنّه حتى لو كانت وسائل التعرف على العقم متوافرة في ذلك الزمن، لما كانت امرأة فرعون بحاجة لها لأنّ زوجها لا يستطيع حتى أنْ يطلب الإنجاب من غيرها (وهو فرعون ذاك الزمان)؟ فهل - يا ترى- من كان في جبروت فرعون يعجزه أنْ يطلب الولد من غيرها؟ ثم، لم يسمح لها أنْ تتبنى غلاما (حتى وإن كان من ذرية بني إسرائيل)؟ ولنفترض أنها كانت هي سبب العقم وعدم الإنجاب، فلم يقبل أنْ ترد بقولها " قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ "؟ فإن كان الغلام قرة عين لها لأنها لا تنجب، فلِمَ يكون قرة عين لفرعون إنْ كان يستطيع الإنجاب؟ ولو كان الأمر يتوقف عند هذا الحد، فلم لا يرد عليها بتبني من ليس من بني إسرائيل؟ ألم يكن قادراً على أنْ يحضر لها ما تشاء من الغلمان من غير بني إسرائيل؟

**رأينا**: كلا، لقد كان ذلك مطلب امرأته ورغبتها وما كان يستطيع أنْ يرد طلبها ذاك في تلك اللحظة خوفاً من أنْ ينكشّف أمر أدهى وأعظم يخص فرعون نفسه. إننا نعتقد أنّ فرعون كان يفتقد ما يستطيع أنْ يقدمه الزوج لامرأته في الفراش حتى تنجب. نعم، لقد كان فرعون يفتقد الذكورة التي يسكت بها زوجته، فما كان أحد ممن حوله يعلم سر فرعون وضعفه هذا سوى امرأته، ولم يكن فرعون يحتمل أنْ يتفشى ذلك السر بين القوم.

لا بل إننا نظن أن الرجل لم يكن سويّاً في فراشه مع زوجته، فاستخدم الأساليب التي ضجرت منها الزوجة نفسها حتى آثرت الموت على الحياة:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: 11]

**والسؤال هو**: ماذا عمل فرعون حتى طلبت المرأة النجاة منه ومن عمله؟ لربما ظن البعض أنه ظلم فرعون، ولكن هل كان فرعون فعلاً يظلم امرأته؟ ألم يكن طلبها مجاب؟ وأي شيء أعظم من أنْ يقبل فكرة أنْ لا يقتل وليد بني إسرائيل الذي سيقف له نداً عنيداً يسلبه ملك مصر كله؟!

وقد يرد البعض بالقول ولكن فرعون لم يكن يعلم أنْ الغلام من بني إسرائيل، فنقول كلا، فحتى لو افترضنا أنه لم يكن يعلم ذلك، فكيف يمكن اكتشاف الأم الحقيقية لطفل ما؟ أليست هي الرضاعة؟ فلب القول أنه عندما رفض الطفل تقبل الرضاعة من النساء جميعاً، وقبل رضاعة امرأة بعينها من بني إسرائيل، فهل كان ذلك سينطلي على متكبر جبار مثل فرعون؟ ألم يكن سيساوره الشك ليتحقق من الأمر بنفسه؟ ثم لندقق في قول زوجته "لا تقتلوه"، وسؤالنا هو: لماذا طلبت منهم أن لا يقتلوا الطفل؟ إننا نظن أن طلبها هذا جاء بعد أن استقر لدى فرعون وملئه أن هذا الطفل من بني إسرائيل، ولو كانوا على يقين أنه ليس من بني إسرائيل لما كان هناك داع لإثارة موضوع قتله حتى تتدخل الزوجة لتنقذه، لقد قبل فرعون السكوت على ما لا يسكت عليه فقط تلبية لرغبة زوجته؟ ولكن السؤال الأكبر هو: هل كان فرعون مضطراً لتلبية رغبة زوجته؟ وإن كان الجواب بالإيجاب، يأتي السؤال الذي لا مفر منه والذي نحاول الإجابة عليه في هذا الطرح وهو: لماذا؟

**رأينا**: كلا، لقد عاشت امرأة فرعون مع زوجها فترة طويلة من الزمن، وتحملت ربما ما لا تستطيع امرأة أخرى أنْ تتحمله من رجل لا يقدم لزوجته حقها في فراشه، لا بل على العكس لربما تحملت منه ما لا يجب أنْ يكون، فقد تحملت ما يمكن أنْ يفعله رجل يعجز أمام امرأته أنْ يثبت لها ذكورته بالطريقة الطبيعية المشروعة.

فتخيل رجل بعظمة فرعون وجبروته وهو الذي كان يقنع كل من حوله أنه إله المصريين كلهم:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [القصص: 38]

نقول تخيل رجلاً بهذا الجبروت يجد نفسه عاجزاً في فراش امرأته، فماذا تتوقع أن يفعل؟

**الجواب**: لقد فعل كل ما يمكن أن يخطر ببال حتى طلبت المرأة نفسها أن تنجو ولو بالموت من عمله:

- ﴿... رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: 11]

نعم إننا نظن أن تلك كانت عقدة فرعون، إنها العقدة الجنسية، ونحن نظن أن تلك العقدة التي تكررت في كثير من الأعمال الأدبية إنما هي مستوحاة (أو مسروقة من عقدة فرعون هذه). فكما سرق التلفزيون الأردني بمسلسلاته البدوية فكرة ملاقاة البطل الشجاع البطلة الجميلة الذكية على عين الماء من قصة موسى مع زوجته عندما وجدها (وأختها) على بئر مدين، سرق هؤلاء الأدباء عقدة فرعون ونسبوها إلى أوديب وأخضعوها إلى التحليل الفرويدي النفسي. ما علينا!!!

المهم في بحثنا هنا هو الحقيقة القرآنية في عدم ورود عبارة أهل فرعون في كتاب الله، ويثبت طرحنا هذا خلو القرآن الكريم كذلك من عبارة بني فرعون، فنحن نفهم أنّ هذه اللفظة تعني الذرية:

- ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ٢٦﴾ [الأعراف: 26]
- ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ [المائدة: 78]

فبني آدم هم ذرية آدم وبني إسرائيل هم ذرية إسرائيل، ولكن لم يكن لفرعون بني (أي ذرية) وذلك لأنه كان يعجز عن إنجابها.

وفي الوقت الذي لا نجد في كتاب الله أن لفرعون أهل أو بني ، نجد أنه كان لفرعون بالمقابل آل (آل فرعون):

- ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُواْ خَٰطِـِٔينَ ٨﴾ [القصص: 8]

فمن هم آل الرجل؟

فبالرغم أنّ موسى وهارون هم إخوة إلاّ أنّ لكل منهم آل:

- ﴿وَقَالَ لَهُمۡ نَبِيُّهُمۡ إِنَّ ءَايَةَ مُلۡكِهِۦٓ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَبَقِيَّةٞ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحۡمِلُهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٤٨﴾ [البقرة: 248]

لقد كان لفرعون أقرباءه ولكن لم يكن له أهل أو بني، وهذا ربما يفسر إصرار فرعون على الكفر والتجبر: إنها عقدة العجز (عجزه أنْ يكون زوجاً طبيعياً، وعجزه أنْ يكون رجلاً ذكراً، وعجزه أنْ يكون أباً)، فخرج على قومه بعد أن حشرهم قائلاً:

- ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤﴾ [النازعات: 24]

والدليل القرآني الآخر الذي نقدمه على عجز فرعون الجنسي، وبالتالي عقدته التي كان يخفيها ويحاول أن يتكبر ويتجبر وهو يعلم بقرارة نفسه ضعفه الحقيقي هو ما ورد في الآيات الكريمات التالية:

- ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمۡ يُغۡنِيَا عَنۡهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَقِيلَ ٱدۡخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ١٠﴾ [التحريم: 10]
- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمۡرَأَتَ فِرۡعَوۡنَ إِذۡ قَالَتۡ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ١١﴾ [التحريم: 11]

وهنا نطلب من القارئ الكريم إمعان النظر بأحد الفروق بين ما ورد في الآية (10) التي تتحدث عن امرأة نوح وامرأة لوط وما ورد في الآية (11) التي تتحدث عن امرأة فرعون، ففي حين جاء عند الحديث عن امرأة نوح وامرأة لوط أنهما كانتا تحت زوجيهما (وهنا أركز على مفردة تحت) لم ترد تلك المفردة عند الحديث عن امرأة فرعون، وسؤالنا هو: لماذا؟ أي لماذا لا يذكر القرآن الكريم أن امرأة فرعون كانت تحت زوجها كما كان الحال بالنسبة لمرأة نوح وامرأة لوط؟

لقد درج جلّ الفكر الإسلامي على تفسير ذلك مجازياً، ومراد قولهم أنه لا يستساغ أن يكون المؤمن تحت الكافر، ولكننا نرد على مثل هذا التصور بأن هناك الآلف (بل ملايين) الحالات التي يكون المسلم مستضعفاً مقهوراً، ولا أود الدخول في جدلية هذا المنطق، ولكن ما أود إثارته هنا هو أن نقرأ الآيات على الحقيقة وليس على سبيل المجاز (للتفصيل في هذا الموضوع نطلب من القارئ الكريم الرجوع إلى مقالتنا تحت عنوان "جدلية الحقيقة والمجاز)

**فنقول**: يذكر القرآن الكريم بصريح اللفظ أن امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت زوجيهما ولم تكن امرأة فرعون تحت زوجها، أليس كذلك؟ ولنربط هذا الأمر بموضوع العلاقة الزوجية الحميمة، ألا تكون المرأة تحت زوجها في الفراش؟ أو لنقل بكلمات أكثر دقة، ألا يتطلب إنجاب الأطفال أن تكون المرأة تحت زوجها؟ بكل تأكيد، لقد كانت امرأة نوح وامرأة لوط تحت زوجيهما فكانت النتيجة أن كان لنوح أهل وأن كان للوط أهل:

- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ٤٠﴾ [هود: 40]
- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ [المؤمنون: 27]
- ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣﴾ [العنكبوت: 33]

ولكن لم يكن لفرعون أهل (ذرية من صلبه) لأن امرأته لم تكن يوماً تحته، والنتيجة أن فرعون كان عاجزاً جنسياً أن يجعل من امرأته منجبة للأطفال، لذا طلبت منه (دون أن يشعر القوم) أن يبقي على حياة طفل من بني إسرائيل لتتبناه، فما كان منه أن يرد طلبها خوفاً أن يفتضح المستور.

إن الحديث السابق يفضي إلى النتيجة الحتمية وهي عدم قدرة فرعون على الإنجاب، فتقبل طلب امرأته أن تتبنى طفلاً من بني إسرائيل. والمدقق في النص القرآني يجد أن فرعون لم يغير مشيئته تلك، فلم يتوجه إلى ربه بالدعاء طالباً الذرية، ولم تعمد امرأة فرعون (وهي المرأة المؤمنة) إلى طلب الذرية من ربها كما فعل زكريا مثلاً، ربما ليقينها أنها حتى لو فعلت هي ذلك فلن يتم لها الحصول على ما تريد لأنها بحاجة ليس فقط أن تغير ما في نفسها هي، وإنما ما في نفس زوجها كذلك، فزواجهما يعاني من العقم في كلا الاتجاهين، وبالتالي فطلب الذرية يصبح أصعب من الحالتين السابقتين، لأننا في هذه الحالة بحاجة إلى تغيير ما في نفس الرجل (الذي لا ينجب) وكذلك ما في نفس الزوجة (التي لا تنجب).

وللحديث بقية